المقتبس

الجزء التاسع من المجلد الثاني

رمضان سنة ١٣٢٥ الموافق اكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٠٧

صدور المشارقة والمغاربة

ابن زيدون

اذا انتشرت الآداب والعلوم في أمة وكادت تعم افرادها كافة يأتي من بين اولئك المتعلمين الكثار صفوة من الرجال منهم ينشأ النوابغ لان ارتقاء العلوم في الخصوص يكون على نسبة ارتقائها في العموم . وصاحب الترجمة هو احد افراد الاندلس المعدودين زكا اصله وسما عقله ورجح بيانه وانفتق لسانه وبعد صيته بين حملة رايات القريض وصوّاغ عقود الانشاء جمع الى تليد مجده طريفًا والى آدابه الوهبية آدابًا كسبية وقد عُدَّ في الطبقة العالية بين شعراء الاندلس ونال من المنثور حظًا كبيرًا فهو على التحقيق كما وصفه احد الادباء « بحتري المغرب » لحسن ديباجته وسهولة معانيه ومتانة تراكيبه تقرأ في منظومه العواطف في ابهى مظاهرها وتتجلى لك اغراضه في اسمى معانيها فشعره جعبة الادب البارع ودرج الذهب الرائع ومثال الظرف والرقة وعنوان الانسجام والاجادة حتى قال احدهم فيه: من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لابي عمرو ونفقه للشافعي وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظرف كله

وصفه صاحب القلائد بقوله : زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجمهورية الذي بهر بنظامه وظهر كالبدر ليلة تمامه فجاء من القول بسحر وقلده ابهى نحر لم يصرفه الا بين ريحان وراح ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات وافراح ولا تعدى به الرؤساء والملوك ولا تروى منه

الا حظوة كالشمس عند الدلوك فشرف بضائعه وارهف بدائعه وراقه وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها وحلى من عينها مكان انسانها .

وفي بعض المجاميع ان الوزير ابا بكر بن عمار وابا الوليد بن زيدون كانا في حسن الشعر فرسي رهان ورضيعي لبان وقد ذكرا كثير الأدباء بالاندلس انهما اشعر اهل عصرهما هذا ما ذكره العماد الكاتب وذكر له القصيدة التي اولها * اما في نسيم الريح عرف يعرف * والرسالة التي كتبها لاستاذه ابن جهور يستعطفه بها وقد اعتقله لما سمع انه مال الى المعتضد عباد وذكر لابن عمار الرائية التي استوزره لسببها ابن عباد وهي ادر الزجاجة الخ .

ولقد كان ابن زيدون آية في طلاقة لسانه كما كان غاية في حسن بيانه ويحكى ان ابنته توفيت وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم فقيل انه ما اعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لاحد قال الصفدي :وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في اساليب الكلام وهو امر صعب الى الغاية وارى انه اشق مما يحكى عن واصل بن عطاء انه ما سمعت منه راء لانه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة والسبب في تهوين هذا الامر وعدم تهويله ان واصل بن عطاء كان يعدل الى ما يرادف تلك الكلمة مما ليس فيه راء وهذا كثير في كلام العرب فاذا اراد العدول عن لفظ فرس قال جواد او سابح او صافن او العدول عن ريح قال قذاة او صعدة او يزفى او غير ذلك او العدول عن لفظ صارم قال حسام او لهذم او غير ذلك واما ابن زيدون فاقول في حقه اقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير الف رئيس ممن يتعين عليه ان يتشكر له و يضطر الى ذلك فيحتاج في هذا المقام الى الف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الى الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده .

ولكنه صوب العقول اذا انبرت سجائب منه اعقبت بسحاب

وقال ابن بسام في الذخيرة في ترجمة ذي الوزارتين الكاتب ابي الوليد ابن زيدون وصاحب الذخيرة خير من يصوّر الرجال ومناشئهم واحوالهم :

كان ابو الوليد غاية منثور ومنظوم . وخاتمة شعراء مخزوم . احد من جر الايام جرا . وفات الانام طرا . وصرف السلطان نفعاً وضرّا . ووسع البيان نظماً ونثراً . الى ادب ليس للجدول تدفقه . ولا للبدر تألقه . وشعر ليس للسحر بيانه . ولا للنجوم الزهر اقترانه . وحظ من النثر غريب المباني . شعري الالفاظ والمعاني . اخبرني غير واحد من وزراء اشبيلية قال : لما خلص ابن عبد البر من يد عباد . خلص الفرزدق من يد زياد . بقيت حضرته من اهل هذا الشان . تثري من ظهر الافوان . وتخي من صدر الجبان . فهبّ باستخلاف ابي محمد

ابن الباجي المشهور امره الآتي في القسم الثاني من هذا الديوان ذكره فكان ابا الوليد غص بذلك وواطأ ابا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك فكانت الكتب تنفذ من انشاء ابي الوليد الى شرق الاندلس فيقال : تأتي من اشبيلية كتب هي بالنظم اشبه منه بالنثر . وقد اجرى ذكره ابو مروان بن حيان في وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : ونوّه بفتى الادب وعميد الظرف الشاعر البديع الوصف ابي الوليد احمد بن زيدون ذي الأبوّة النبيهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلاطة وقوة العارضة والافنان في المعرفة وقدمه الى النظر على اهل الذمة لبعض الامور المعترضة وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فاحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك . قال ابو مروان وكان ابوالوليد من ابناء وجوه الفقهاء بقرطبة في ايام الجماعة والفتنة وبرع ادبه وجاد شعره وعلا شأنه وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب وهوّن عنده كل مطلب وكان علقه من عبدالله بن احمد احد حكام قرطبة ما اداه الى السجن فالقى نفسه يومئذ على ابي الوليد بن جهور في حياة والده ابي الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه ولما ولي الامر بعد والده نوّه به واسنى خطته وقدّمه في الذين اصطنع لدولته واوسع رايته وجاله كرامته ولم يقنعه ذلك فيما زعموا فاتفق ان عنّ له مطلب بحضرة ادريس الحمي بمالقة فاطال الثواء هنالك واقترب من ادريس وخف على نفسه واحضره مجالس أنسه فعنّ عليه ابن جهور وصرفه في السفارة بينه وبين امراء الاندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة فاستقل بذلك بفضل ما أوتيه من العارضة بالنسب والجاه والمنفعة ولم يغنه ذلك عن التهافت في الترقي لبعد الهمة فهوى عما قليل الى عباد صاحب اشبيلية فهاجر عن وطنه اليه ونزل في كنفه وصار من خواصه وصحابته يجالسه في خلواته ويسفر له في مهم رسائله على حال من التوسعة وكان ذهابه لعباد سنة احدى واربعين واربعمائة .

قال ابو حسن : فاما سعة ذرعه وتدفق طبعه وغزارة بيانه ورقة حاشية لسانه فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد والرمل الذي لا يحصر ولا يعد اخبرني من لا ادفع خبره من وزراء إشبيلية قال : لعهدي بابي الوليد قائمًا على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمع يجيب احدًا بمثل ما اجاب به غيره لسعة ميدانه وحفو رجنانه . وقد اخرجت من اشعاره التي هي حجول وغرر ونوادر اخباره التي هي مآثر وأثر ورسائله التي اخرست السنة الحفل (ما ستقرؤه) . ثم ذكر له ما يتعلق بذلك في نحو خمسين صفحة ختمها بفصل يتعلق بذكر وفاته قال : ومما يتعلق بذكر وفاة ذي الوزارتين فصل من تاريخ الشيخ ابي مروان

ابن حيان رأيت اثباته لنبل مساقه وحسن انسياقه يقول فيه توفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وستين واربعمائة سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد الى اشبيلية الخضرة الاثيرة لمطالعتها وتأنيس اهلها من وحشة خامرت عامتهم من اجل عدوان رجل منهم على يهودي زعم انه سب الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرده وحرك عليه العامة فقبض عليه صاحب المدينة عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس في انكار حبسه كلام واكثار فخاطب السلطان بقرطبة بما كان منه ويستأمره في شأنه فعجل انفاذ ولده الحاجب سراج الدولة الى اشبيلية في جيش كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رجاله لمشارفة القصة والاحتياط على العامة وانفذ معه ذا الوزارتين ابا الوليد بن زيدون احد الثلاثة كابري وزرائه المثناة وزارتهم مع الحاجب على بقية وعك كان متألما منه ولم يعذره في التوقف من اجلها فمضى لطيته مسوقا الى منيته وخلف ولده ابا بكر النفذ الوزارة المرتسم بالكتابة وراءه سادا مكانه بالحضرة فأقر فيها اياما ثم أمر بالمسير وراء والده لامر كلفه فعجل بالانطلاق له فمضى غداة يوم السبت من ثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت على سواهم فتحدث الناس بنبو مكان الاديب ابن زيدون لدى السلطان وبما جرى من الخاطبين لديه ابن مرتين وابن عمار في ابعاده وابعاد ابنه واحتوائهما على خاصة السلطان وتدبير دولته ولم يطل الامد بابن زيدون بعد لحاق ابنه به ووجدانه اياه متزيدا في مرضه نازحا عن الفه على جهد في استدعائها على انتهاء المدة وانتهاك القوة فاستقر به وجعه الى ان قضى نحبه وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين فدفن فيها مشهودا مفتقدا واحتوى تربها عليه فيابعد ما بين قبره وقبر ابنه لدينا رحمة الله عليهما .

ولقد اتصل خبر هلكه بمشيرته اهل قرطبة فتنازعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حدبا عليهم والبقاء لمن تفرد به وحده . وقد عزى اخوانه عنه امتداد بقاء فتاه الندب ابي بكر ولده بعده سادا ثم ساميا مسماه غائظا عداه عاطيا منتهاه مع شماخة ودماثة وحصافة ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من ادب بلاغة وكتابة وشركة في التعاليم المعلية واشتداد في رعاية منقادي الذمة لم يفقد اخوان ابيه معها الا عينه اه

اما شعره فمعروف سائر على الالسن . وقد افضنا في الكلام على ديوانه في غير هذا الموضع من هذا الجزء . واما نثره فقليل في الايدي لم يشتهر منه غير رسالتين مفردتين لم ينسج ناسج على منوالهما احداهما رسالته في التنكيت على احد وزراء عصره وهي التي شرحها الاديب المشهور ابن نباتة السعدي . والثانية رسالته التي كتبها وهو في الحبس يستعطف

بها امير مصره وقد شرحها صلاح الدين الصفدي (وطبع هذان الشرحان في الديار الاوربية) ومتى ساعدنا الوقت نشرناهما لكثرة ما فيهما من التنبيه للامور التاريخية التي يجدر بكل اديب الوقوف عليها وقد احببنا ان ننشر له بعض الرسائل التي ذكرها صاحب الذخيرة نقرأوها في باب الصحف المنسية .

ثروة العرب

قد يظن من يطالع تاريخ الاسلام بدون ان يعمل نظره معملة ان ما يراه في تضاعيف سطوره من اخبار الثروة وطول ارقامها ونثاني الباحثين عنها والمتفانين في نيلها ضرباً من ضروب الغلو ساق اليه تسرع المؤلف او اختلاق منه ليجعل لمن يتكلم عنه وقعاً في النفوس ويجب اليها مطالعة كتابه خصوصاً والبشر في كل دور من ادوارهم كادوا يجعلون الدينار معبودهم .

لولم يرد احصاء الثروة الاسلامية في كتب الثقات ما كان كلام بعضهم عنها بحيث يصح نقله . فقد لقي الرسول عليه الصلاة والسلام ربه وحاله من الزهد في المال والرفاهية حاله واستن معظم اصحابه بسنته وكان من امر ابي بكر وعمر وعلي من الزهد في المال ماشاع ذكره وظهر اثره وتحدث به السمار في الامصار . قال (١) معاوية وقد ذكر المال « اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده واما عمر فارادته الدنيا ولم يردها واما عثمان فاصاب منها واما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن » .

على هذا النحو كان التأثل والارتياش راح الخليفة الاول واسباب الفتوح ممدودة ولم يصل قواده الى اقصى جزيرة العرب ليفتحوا بلاداً عامرة كفارس ومصر والشام كانت خزانة الثروة والاموال بما كان فيها من حضارة قديمة وانما تهيأت الفتوحات وكثرت الغنائم ايام الخليفة الثاني ففتح الله للمسلمين تلك البلاد الغنية فعف عنها هو ومعظم اصحابه وكان يصادر من عماله من يجمع مالاً من غير حله . اما الخليفة الثالث فاخذ نصيباً من الدنيا هو وعماله وربما اغرق دولاء في نيلها بطرق لم تعهد زمن الخليفتين السالفين لان معظمهم من انسبائه

(١) اعتمدت في هذه الرسالة على مختصر تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي وهو مخطوط كبير الحجم غزير الفائدة وقد جعلت عبارته وسط علامتين اما سائر هذه الاخبار فمرجعه كتب التاريخ .

وخاصته لا يحاسبون فيما هم فاعلون حتى اذا جاء الخليفة الرابع اراد ارجاع الخلافة الى طورها اللائق وقتر على نفسه وعلى خاصته وذويه ولم يتسع له الوقت حتى تظهر فيها اخلاقه بالقول والفعل لاشتغاله بدفع غوائل الفتن .

جاء معاوية فانقلبت الخلافة الى ملك عضوض وبدأ يستكثر من المال فيعطيه الاديب والطبيب والخطيب والفقيه والكاتب والقائد والعامل ومن ماثلهم يجعلهم عدته في توطيد الملك له ولذريته فكثرت الاموال وانتأ المسلمون يقلدون الروم والفرس في السعي وراء المكاسب واختزان الاموال والناس على دين ملوكهم . ولم يكن الاّ قليل حتى ابدى عبدة الدرهم نواجذهم من غير نكير وكاد ينسى ما كان عليه اهل الصدر الاول الا قليلاً ففي حوادث سنة اثنتين وثلاثين « ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفرس يشترى بمائة الف وحتى كان البستان يباع بالمدينة باربعمائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجبى اليها خراج الممالك وهى دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والخيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا »

«وكان عبدالرحمن بن عوف الزهري احد الثمانية الذين سبقوا الخلق الى الاسلام تاجراً كثير الاموال بعد ان كان فقيراً باع مرة ارضاً له باربعين الف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمائة جمل باحمالها قدمت من الشام واعان في سبيل بخمسمائة فرس عربية» «ومات ابوطلحة الانصاري احد من شهد بدراً في سنة اربع وثلاثين وكان اكثر الانصار مالاً » . « وكان الزبير بن العوام ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم واحد العشرة كثير المتاجر والاموال قيل كان له الف مملوك يؤدون اليه الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه وقد خلف املاكاً أبيعت بنحو اربعين الف الف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط » . «وكان طلحة بن عبيد التيمي احد العشرة من الاجواد يقال له طلحة الفياض وطلحة الجود ويقال انه فرق في يوم واحد سبعمائة الف ويروى ان اعرابياً من اقاربه قصده وتوسل اليه فوصله بثلثمائة الف درهم ويروى عن عمرو بن دينار عن مولى طلحة أن دخل طلحة كان كل يوم الف درهم ويقال انه خلف من المال الفي الف درهم ومائتي الف دينار وقال ابن الجوزي :خلف طلحة ثلاثمائة حمل ذهباً وروى ابن سعد باسناده له قوّمت اصول طلحة وعقاره بثلاثين الف الف درهم»

وخلف عمرو بن العاص نائب معاوية على مصر « اموالاً عظيمة من ذلك سبعون رقبة بعير مملوءة ذهباً وكان معاوية قد اطلق له خراج الديار المصرية ست سنين شارطه على ذلك لما اعانه على وقعة صفين» . جمع ابن العاص ما جمع لا من الخراج الذي كان يستأثر به وحده وانما من تلونه في اساليب استخراج المال من اهل مصر ولذا صادره عمر بن الخطاب

لما كان عاملاً له عليها. روى الديري في كتاب الحبس على التهمة عن ابي القاسم بن سلام في كتاب الاموال في اسناد له عن هشام بن ابي رقية وكان من افتتح مصر قال افتتحها عمرو ابن العاص فقال: من كان عنده مال فليأتنا به قال: فأتي بمال كثير قال: وبعد ذلك بعث الى عظيم اهل الصعيد فقال: المال فقال: ما عندي مال فسجنه قال: وكان عمرو يسأل من يدخل عليه هل تسمعونه يذكر احداً قالوا: نعم يذكر راهباً بالطور فبعث به مع رسول من قبله الى الراهب فأتي بقلة من نحاس مختومة برصاص فاذا فيها كتاب واذا فيه يابني ان اردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية فبعث عمرو الامناء الى الفسقية فحفروا فيها فاستخرجوا منها خمسين اردباً دنانير قال فضرب عنق القبطي وصلبه.

ومصر في ام المدن الاسلامية بثروتها وتربتها ذهب كما وصفها احد حكامها ولم يزل امراؤها يستخرجون اموالها ففي سنة خمس وثمانين «مات متولي مصر والمغرب عبد العزيز بن مروان الاموي اخو الخليفة وقد ولي الديار المصرية عشرين سنة وخلف اموالاً لا تحصى» وسنة ٥١٥ مات بمصر الافضل امير الجيوش شاهنشاه احمد بن امير الجيوش بدر الارمني وكانت ولايته ثمانياً وعشرين سنة على الديار المصرية «واستولى الآمر على حواصله كلها ولم يسمع في الدنيا بمثلها كثرة كانت دوابه باثني عشر الف الف دينار وكان لبن المواشي التي له يغل في العام ثلاثين الف دينار واما ابن خلكان فنقل عن صاحب الدول المنقطعة قال: خلف الافضل وزير الديار المصرية وامير جيوشها ستمائة الف الف دينار ومائتين وخمسين اردب دراهم وخمسة وسبعين الف ثوب ديباج.»

وكانت أسباب الثروة في البلاد الشرقية كثيرة وخصوصاً لمن وَلِي شيئاً من امر الامة في دور الانحطاط وارتفاع المراقبة وفساد التربية فان المصادرات والرشوات وانواع الهدايا والقربات وقلة النفقات ورخص البياعات كانت كلها من الاسباب التي تهيء للامير متى رفع خوف الله من قلبه ان يكون صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يسلبها ألوفاً من الضعفاء لينعم بها باله وبال عياله واولاده من بعده. والا فكيف كان يتأتى للامراء ان يخلفوا الاموال الطائلة في خزائنهم ويسرفوا اسرافاً لا يكاد يصدق لولا صحة ما رواه المحققون من اهل النظر.

قيل ان جملة ما انفقه عبدالله محمد بن ابي يوسف احد ملوك الاندلس في سفرة له مائة وعشرون حملاً ذهباً فكم كان في خزائنه يا ترى؟ ولا يخفى على ذي بصر ان احوال العرب الاجتماعية لم تكن في الدرجة التي نتصوّرها ولو حفظت لنا كتبهم وسجلاتهم من الضياع لكان حكمنا على مدنيتهم من هذا القبيل صحيحاً لا شرب فيه ولا تخليط ولا

شك انه كان للقوم عناية بالمال وطرق استثماره واخبار اصحابه عنايتهم بالشؤون التي قلما يخطر بالبال ان كتاب العرب دونوافيها وصنفوا . وما تعب يعانيه من يود الخوض في ذكر احوال العرب على جليتها الا ناتج من قلة الظفر بكل ما كتبوه وقد صام القوم عن العلوم الاجتماعية قرابة خمسمائة سنه لم يكن لهم فيها بعد ابن خلدون فيما احسب كتاب ولا رسالة يصح الرجوع اليها في المعضلات .

***

رغب كثير من اهل الاسلام في الدنيا على اصولها ونشدوها من ابوابها وادخروا الاصفر والابيض بعرق الجبين والكدح المشروع والطرق المعقولة والارتياض والاستنفاض والصناعات والتجارات والزراعات . وان قلّ من جمعوا المال من حله وانفقوه كذلك قلتهم في كل امة بحيث يتأتى للباحث في تراجم كبار الاغنياء في العالم ان يرجع طبقاتهم الى ثلاث اما سارق بطرق تجارية او صناعية كما في الغرب اليوم او سارق برشوة ومظلمة كما في الشرق قديمًا وحديثًا او وارث ترك له اهله مالاً جنوه بتلك الاسباب وقليل منهم بالعمل واتخاذ اسباب الرزق . ولا يعقل ان يكسب المرء من حلال صرف ويسير على قانون مشروع او معقول ويتسنى له ان يكون من رجال الخزائن والصناديق .

كان امام اهل مصر الليث بن سعد الفهمي المتوفى سنة ١٧٥ « من بحور العلم له حشمة وافرة وكان نظير ملك قيل كان دخل الليث في السنة ثمانين الف دينار وما وجبت عليه زكاة مال قط وكان نواب مصر من تحت اوامره » وسنة ٣٠٢ صادر المقتدر بالله العباسي حسين ابن الجصاص الجوهري وسجنه قال ابن الجوزي : واخذوا منه ما قيمته ستة عشر الف الف دينار قال بعضهم : رأيت ابن الجصاص يُقبل بين يديه بالقبان سبائك الذهب قال الكتبي في ذيل الوفيات : كان ابن الجصاص من اعيان التجار ذوي الثروة الواسعة وللمابو يع لعبدالله ابن المعتز وانحل امره وتفرق جمعه وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص هذا فوشى به خادم صغير لابن الجصاص فصادره المقتدر على ستة آلاف الف دينار قال ابن الجوزي : اخذوا منه ما مقداره ستة عشر الف الف دينار عينًا وورقًا وقماشًا وخيلاً وبقي له بعد المصادرة شيء كثير الى الغاية من دور وقماش واموال وبضائع وضياع .

قال ابن الجصاص في سبب ثروته : انه كان في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد ابن طولون وكان وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كان يفارق الدهليز لاختصاصه به فخرجت اليه قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم ير قبله ولا بعده اخر ولا احسن منه كل حبة منه تساوي مئة الف دينار عنده وقالت : يحتاج

ان يخرط هذه حتى تصغر فتجمص في آذان اللعب وفي قلائده قال : فكدت اطير واخذتها وقد قلت اسمع والطاعة وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ولم ازل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالاً في النوع الذي طلبته واردته وجئت عشياً وقلت ان خرط هذا يحتاج الى انتظار و زمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليها المجتمع وقلت الباقي يُخرط في ايام فقنعت بذلك واعجبها الحب فخرجت وما زلت اياماً في طلب الباقي حتى اجتمع فحملته اليها وقامت عليّ المائة حبة بدون المائة الف درهم واخذت منهم جوهراً بمائتي الف الف دينار ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره .

هكذا اغتنى ابن الجصاص المتوفى بعد العشرين والثلثمائة تقريباً وله اخبار ونوادر لا تصدر الا عن النوكى كان يتظاهر بها ليرى الوزراء منه هذا التغفل فيأمنوه على انفسهم اذا خلا بالخلفاء .

ومما يدل على مقدار الثروة الاسلامية النظر في مصادرات الملوك لامرائهم وقوادهم فقد صادر المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة خالد بن برمك «واخذ منه ثلاثة آلاف الف ثم رضي عنه» . «وسنة ٣١٩ غضب المعتضد على وزيره الفضل بن مروان واخذ منه عشرة آلاف الف دينار وفناه» . «وفي سنة سبع غضب المتوكل على احمد بن ابي دوّاد القاضي وصادره واخذ منه ستة عشر الف الف درهم» . «وفي سنة تسع عُزل القاضي القضاة يحيى بن اكثم وأُخذ منه مائة الف دينار» . «وكان الوزير ابن الفرات ذا جبروت وفتك وزُرمرات للعباسيين ثم صودر وقتل قيل كان دخله من ملكه في السنة الفي الف دينار وكان له من الخيل والمماليك والتجمل مالا يكون مثله لسلطان» . ولما جرت المحنة على الوزير ابي علي بن مقلة صاحب الخط المشهور في زمن الراضي بالله في سنة ٣٢٤ اخذ خطه بالف الف دينار «ومات ايتاخ التركي الامير مقدم جيوش الواثق سنة اربع وثلاثين ومائتين خافه المتوكل فقبض عليه وأُميت عطشاً واخذوا له الف الف دينار» .

جاء في ذيل الدول وسنة ٧٥٣ قبض السلطان علي الوزير علم الدين بن زنبور وصودر بعد الضرب والعذاب فكان المأخوذ منه من النقد ما يزيد على الفي الف دينار ومن اواني الذهب والفضة نحو ستين قنطاراً ومن اللؤلؤ نحو اردبين ومن الخياصات الذهب ستة آلاف ومن القماش المفصل نحو الفين وستمائة قطعة وخمسة وعشرين معصرة سكر ومائتي بستان والف واربعمائة ساقية ومن الخيل والبغال الف ومن الجواري سبعمائة ومن

العبيد مائة ومن الطواشية سبعون الى غير ذلك . وكان دخل القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد العباسي من املاكه في السنة سبعمائة الف دينار «ومات سنة ٣٠١ امير جنديسابور علي بن احمد الراسبي وخلف تركة عظيمة منها الف الف دينار والف فرس» . وخلف احمد ابن يونس الحراني من اطباء الاندلس ما قيمته ازيد من مائة الف دينار نال اكثرها من الطب . وكان ابوعبدالله بن الكتاني من اطباء الاندلس وفلاسفتها ذا ثروة وغنى واسع وفي عيون التواريخ (١) ان عبدالله بن محمد الاسدي المعروف بابن الاكفاني قاضي قضاة بغداد المتوفى سنة ٤٠٥ انفق على ما قيل مائة الف دينار على طلب العلم . وخلف خاسر الشاعر ايام الرشيد ستة وثلاثين الف دينار وليس هذا بعجيب على من نظم يتيمة في مدح محمد بن زبيدة لما بايعه الرشيد فحشت فاه درًا باعه بعشرين الف دينار

وذكر ان السلطان سنجر بن ملكشاه المتوفى سنه ٥٥٢ — صاحب خراسان وغزنة وما وراء النهر الذي خُطب له بالعراقين واذربيجان واران وارمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة وضُربت السكة باسمه في الخافقين — اصطبح خمسة ايام متوالية ذهب في الجود بها كل مذهب فبلغ ما وهبه من العين ستمائة الف دينار غير ما انعم به من الخيل والخلع والاثاث وغير ذلك وقال خازنه اجتمع في خزائنه من الاموال مالم اسمع انه اجتمع في خزائن احد من الملوك الاكاسرة وقلت له يومًا حصل في خزائنك الف ثوب ديباج اطلس واحب ان تبصرها فسكت وظننت انه رضي بذلك فابرزت جميعها وقلت اما تنظر الى مالك اما تحمد الله تعالى على ما اعطاك وانعم عليك فحمد الله تعالى ثم قال يقبح بمثلي ان يقال مال الى المال وامر الامراء بالاذن في الدخول عليه ففرق عليهم الثياب الاطلس وانصرفوا واجتمع عنده من الجوهر الف وثلاثون رطلاً ولم يسمع عند احد من الملوك بمثل هذا ولا بما يقاربه قاله ابن خلكان .

قال صاحب الدول : خلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عينًا ومائتين وخمسين اردبًا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين الف ثوب ديباج اطلس وثلاثين راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر الف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مسرود مذهب بلون من الالوان ايما احب منها لبسه وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من دق ثنيس ودمياط وخلف من الخيل والرفيق والبغال والمراكب والطيب والحلي والتجمل مالا يعلم

(١) هو للصلاح الكتبي صاحب ذيل وفيات الاعيان وجدت منه في مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق الجزء الاول والثالث والخامس والسادس والثاني عشر والثالث عشر

قدره الا الله تعالى وخلف خارجاً عن ذلك من البقر والغنم والجواميس ما يستحي الانسان من ذكر عدده وبلغ ضمان البانها في سنة وفاته ثلاثين الف دينار ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما ابر ذهب برسم الجواري والنساء .

ذكر الطبري في سنة ثلاث عشرة ومائتين ان المأمون ولى اخاه المعتصم الشام ومصر وابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم واعطى كل واحد منهما ومن عبدالله بن طاهر اخمسمائة الف دينار وقيل انه لم يفرق في يوم واحد من المال مثل ذلك .

وكان ابو محمد عبدالله بن احمد الطالبي المصري صاحب رباع وضياع ونعم ظاهرة وعبيد وحاشية كثير التنعم كان بدهليزه رجل يكسر اللوز كل يوم من اول النهار الى آخره برسم الحلوى التي ينفذها لاهل مصر من الاستاذ كافور الاخشيدي الى من دونه فمن الناس من كان يرسل له الحلوى كل يوم ومنهم كل جمعة ومنهم كل شهر وكان يرسل الى كافور في كل يومين جامين حلوى ورغيفاً في منديل مختوم قاله ابن خلكان . ودفع ابو محمد عبدالله ابن عبد الحكم والد ابي عبدالله محمد صاحب الامام الشافعي لهذا الامام عند قدومه الى مصر الف دينار من ماله واخذ له من ابن عسامة التاجر الف دينار ومن رجلين آخرين الف دينار وكان ابو محمد من ذوي الاموال والرباع وله جاه عظيم وقدر كبير

هذه امثلة مما عثرنا عليه تصوّر للقارىء حالة الثروة عند العرب بعض التصوير والله اعلم بالصواب

اليونان

سبب نصرة اليونان — لم تكن حرب مادي حربًا وطنية بين يونان وبرابرة بل كان يونان آسيا ونصف يونان اوروبا يقاتلون في الجيش الفارسي ولم يجسر كثيرون من ابناء جنسهم على ابداء اقل حركة . وكان الخاقان الاعظم ورعاياهم الذين حاربوا اسبارطة واثينة ومن حالفهما في الحقيقة . فكان من خوارق العادات ان يغلب هذان الشعبان الصغيران ذاك الخليط العظيم من الفرس . وزعم اليونانيون ان الآلهة قاتلوا عنهم ومتى درست احوال الخصمين عن أمم ببطل عجبك . فقد كان الجيش الفارسي جسيماً فظن كسيركس على سذاجة قلبه ان النصر معقد اللواء بكثرة العدد بيد ان هذه الجموع كانت مرتبكة من نفسها ولم تدر من اين تأخذ ذخيرتها وتتقدم لتقدماً بطيئاً ويضيق ذرعها من اول يوم الحرب حتى ان السفن المزدحمة كانت تغرز طرف مقدمها في السفن المحيطة بها

وتحطم لها مجاذيفها ثم ان في ذلك الجماء الغفير كما يقول هيرودتس كثيرًا من الناس وقليلاً من الجند . ولم يكن غير الفرس والماديين وهم خيرة الجيش يقاتلون بشدة اما غيرهم فلم يكونوا يزحفون الى العدو الا اذا انهالت السياط عليهم وقد جاؤا بسيف القوة والقهر الى حرب لا يهمهم امرها ولا سلاح لديهم ولا نظام في صفوفهم فهم لا يلبثون ان يركنوا الى الفرار بمجرد ان تغيب اعين الحراس عنهم . وتقاتل الماديون والفرس وحدهم في بلاتيه وميكال ونجا الرعايا . وكان الجند الفارسي سيء النظام والعدة يلبس ثيابًا طويلة وقد وقيت رؤوسهم بقلنسوة من لباد وحفظت اجسامهم اتراس من شجر الصفصاف والخلاف وسلاحهم قوس ومدية وحربة قصيرة جدًا ولم يكونوا يستطيعون القتال الا بعيدين ويقاتل الرجل رجلاً مثله . اما الاسبارطيون والمتحدون معهم بعقد المحالفة فكانوا على عكس ذلك تقيهم الترس العظيمة والخوذ وقايات الصدر ويسيرون جموعًا مشتبكة لا تقاوم يخرقون صفوف العدو بحرابهم الطويلة وما هو بأسرع من رد الطرف حتى تصير الحرب ملحمة كبرى ومذبحة تباع فيها الارواح بيع السماح .

نتائج الحروب المادية — قادت اسبارطة الجيوش ولكن كما قال هيرودتس كانت آثينة هي التي انقذت اليونانية بان كانت لها مثالاً في المقاومة . فالفت اسطول سلامينة وقد استفادت آثينة من هذه النصرة اما المدن الايونية من الجزر وشاطيء آسيا جملة واحدة فقد ثارت ومردت والفت عصابة تبايعت فيها على الموت في سبيل الذود عن اوطانها من مهاجمة الفرس . واما الاسبارطيون وهم شعوب جبلية فلما لم يستطيعوا ان يدبروا حربًا انصرفوا راجعين ادراجهم فاصبح الآثينيون اذ ذاك زعماء العصابة . وفي عام ٤٧٦ جمع اريستدس قائد اسطولهم نواب المدن المتحالفة فقر رأيهم على متابعة حرب الخاقان الاعظم وتآمروا بينهم على تقديم سفن ومحاربين وان يؤدوا كل سنة قطيعة من المال قدرها ٤٦٠ تالانتًا (اثنين مليونًا وسبعمائة الف فرنك) وجعلت الخزانة بمدينة ديلوس في معبد ابولون معبود الايونيين وكان معهد الى آثينة ان تقود الجيوش وتجبي القطائع . وقد القى اريستدس في البحر قطعة من الحديد المحمى واقسموا كلهم ان يحتفظوا جميعًا بالعهود الى يوم تطفو هذه الحديدة على سطح الماء وذلك حبًا بتأكيد العهد ونفاهيًا من نقض يمين الاخلاص .

وقد حدث مع هذا ان الحرب وقفت وعقد اليونان — وكان النصر اليف الويتهم ابدًا — معاهدة سلمية او هدنة مع الخاقان الاعظم فابى الملك ان يعد يونان آسيا من رعاياه (نحو سنة ٤٤٩) . وهنا سؤال يورد في هذا الباب وهو كيف انتهت معاهدة اريستديس وهل كان على المدن المتحدة ان تؤدي القطائع على حين ليس عليها ان تقاتل بعد فابى بعضها

ذلك حتى قبل ان أطفئت نار الحرب . وزعمت آثينة ان المدن كانت أخذت على انفسها العهد على الدهر فاضطرتها الى ان تؤدي ما يطلب اليها . حتى اذا وضعت الحرب اوزارها لم تجد خزانة ديلوس فتيلاً ولذلك نقلها الآثينيون الى مدينتهم واستخدموها في ابتناء المصانع والمعاهد . ولطالما كانوا يقولون ان المتحدين يؤدون ما ينتقاضونه من الضرائب للخلاص من ايدي الفرس فمن ثم لم يكن لهم ما يطالبون به بتة ما دامت آثينة تدفع عنهم عادية الخاقان الاعظم . وهذا مما غير حالة المتحالفين فصاروا ملزمين بدفع الضرائب لآثينة وما عتموا ان امسوا رعاياها فزادت آثينة في قطائعهم واكرهت مواطنيهم على المثول امام المحاكم الآثينية بل قد انفذت بطواريء من قبلها ليستعمروا جانباً من ارضهم وبهذا النظر اصبحت آثينة ام القرى تحكم زهاء ثلثمائة مدينة متفرقة في الجزر وشواطيء الارخبيل وتجبي قطيعة قدرها ستمائة تالان في كل سنة .

الصنائع في بلاد اليونان

آثينة على عهد الامبراطور بيركليس

بيركليس — كانت آثينة في منتصف القرن الخامس من اقدر المدن اليونانية يدير امرها بيركليس احد ابناء الأسرات العظيمة وكان مقلاً من الكلام غير متبذل في شخصه ولم يكن يتوقع في اعماله رضى الامة بل كان الآثينيون يحترمونه ولا يجرون الا على نصائحه وهو معروف بانه متمكن من شؤون الادارة ومعرفة البلاد ولذلك دخلوا تحت سيطرته وحكمه فادار سياسة آثينة كلها اربعين سنة كما قال معاصره توسيديس المؤرخ : ان الحكومة الديمقراطية كانت موجودة بالاسم بل كانت تلك الحكومة حكومة الوطني الاولى على التحقيق

آثينة ومصالحها — كانت منازل القوم الخاصة في آثينة كما في معظم المدن اليونانية ضيقة واطئة متراكمة بعضها على بعض يكون منها ازقة ضيقة منعطفة سيئة التبليط . وقد جعل الآثينيون عظمتهم في معالمهم العامة . فمنذ اخذوا يجبون من محالفيهم قطائع لتصرف في سبيل الحروب كانوا ينفقون النفقات الطائلة في اقامة ابنية جميلة فعمروا في ساحة احد الشوارع رواقاً مزيناً بالصور (الفيسيل) وانشؤا في المدينة دار تمثيل ومعبداً اكراماً لتيزيس احد ابطالهم واوديون معبد الشعر والموسيقى وذلك للمسابقة في هذا العلم . ولكن قامت اجمل المباني على صخرة الاكروبول كأنها على قاعدة هائلة وهما معبدان (احدهما وهو البارتينون جعل قربى للعبودة آثينة حامية مدينة آثينة) وهيكلاً ضخماً من التلز يمثل آثينة وسلماً من الآثار الجليلة يصل الى البروبيلي وراق الرخام في آثينة . ومن ذلك العهد كانت آثينة اجمل بلاد اليونانية وانضرها .

عظمة آثينة — ومع ما خصت به آثينة من الصفات المشار اليها كانت ايضاً مدينة اهل الصنائع فقد حشر اليها الشعراء والخطباء والمهندسون والمصورون والنقاشون وكان بعضهم من اهل آثينة ووجهائها وجاءها البعض الآخر من اطراف ارض يونان يحملون الى تلك المدينة العظيمة نتائج صناعاتهم وطُرف ضرائبهم . لا جرم انه نبغ كثير من ارباب الصنائع اليونان لم يكونوا من اهل مدينة آثينة وذلك قبل القرن الخامس وبعده بكثير من الزمن ولكن قلّ ان اجتمع هذا القدر العظيم من ارباب الصنائع في مدينة واحدة ولقد كان معظم اليونانيين من اكيس ارباب المعارف في الصناعات وموادها بيد ان الآثينيين فاقوا غيرهم بحسن ذوقهم وصنع ايديهم وامتازوا بعقول مثقفة ورغبة في الطرف وآثار الظرف واللطف . ولئن جاء من ابناء يونان امة رفيعة القدر عالية المكانة في تاريخ الحضارة فذلك لانها امة تحسن ملكة الصناعات فلا جيوشهم القليلة ولا بلادهم الصغيرة الرقعة خدمت العالم والعمران خدمة اعظم من خدمة صناعهم لهما . فاليك السبب الذي من اجله كان القرن الخامس اجمل عهد في تاريخ يونان والداعي الى ان جعل آثينة تستأثر بفضل الشهرة اكثر من غيرها من المدن اليونانية .

الآداب

الخطباء — امتازت آثينة اولاً ببلاغة خطبائها فكانت حقاً بلد الادب وحسن الالقا فباخطب في مجلس الامة يقرر اشهار الحروب وعقد السلم ووضع القطائع والضرائب وكل الشؤون العظيمة وباخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا او يبرؤون فللخطباء السلطة وعلى الأمة ان تعمل بنصائحهم ومواعظهم وربما عهدت اليهم بادارة شؤون المملكة فقد عين كليون قائداً ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب . وللخطباء نفوذ وكثيراً ما يلجؤون الى بلاغة القول النبيل من عداتهم في سياستهم وربما اغتنوا لانهم ينالون من ارباب الغايات ما يرضيهم من المال ليعضدوا احد الاحزاب . فقد اخذ اشيل مالاً من ملك مكدونيا وقبض ديموستين دراهم من ملك الفرس .

ثم ان بعض الخطباء ينشئون خطباً ليلقيها غيرهم . ولا يسوغ لمن كانت له قضية ان يرفعها بواسطة محام كما هو الحال عندنا بل تقضي شريعة البلاد ان يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات . فمن ثم كان عليه ان يروح الى احد الخطباء يلتمس منه تأليف خطاب له يستظهره ليتلوه امام المحكمة . ولطالما جاب بعض الخطباء بلاد يونان وتكلموا في موضوعات توحيها اليهم المخيلة فاقاموا لهم كما نقول مقامات وعقدوا اندية ومؤتمرات (١) وكان قدماء

(١) اشتهر عشرة من هؤلاء الخطباء خاصة فدعوا خطباء اتيكيا العشرة

الخطباء يتكلمون بدون تصنع مقتصرين على ان يقصوا على المنابر الكوائن بدون ان يعمدوا الى اساليب خطابية فيقفون في المنبر لا حراك لهم دون ان يصرخوا او يتحركوا وكان الملك بيركليس يخطب خطبه على طريقة هادئة دون ان يحرك اهداب ردائه وعند ما كان يقف في منبر الخطابة وقد تكلل رأسه حسب العادة باوراق الشجر يزعم الشعب انه يتخذه ربا من ارباب الاولمبيا ولكن الخطباء الذين جاؤا بعد ذلك طمعوا في اثارة الامة وتحريك احساسها والنفوذ الى شعورها واصطلحوا على الانشاء المتين يروحون في المنبر و يغدون منشدين متحركين . وما عتمت الامة ان اعتادت هذا الاسلوب في الفصاحة . ولما اخذ ديموستين يتكلم في منبر الخطابة للمرة الاولى طفق الحضور يقهقهون و يضحكون من اسلوبه اذ لم يكن يحسن التلفظ ولا الوقوف ثم ما لبث ان مرن على الالقاء واحسان الحركات المطلوبة حتى صار نديم الشعب وعزيزه . دبت الايام ودرجت الليالي وديموستين خطيب في امته . وقد سُئل بعد عن اول صفة في الخطيب فاجاب بانها العمل ثم سئل ثانية فقال العمل ثم سئل ثالثة فقال العمل . ومعنى العمل طريقة الالقاء فانها كانت تهم اليونان اكثر من الخطبة .

الحكماء — كان منذ قرون عند يونان آسيا خاصة اناس يراقبون المادة و يفكرون في امرها لقبوا بالحكماء والعلماء في آن واحد وقد عُنوا بالطبيعيات والفلك والتاريخ الطبيعي اذ لم يكن العلم قد انفصل بعد عن الفلسفة وهكذا كان حال مشاهير الحكماء السبعة ببلاد يونان في القرن السابع .

السفسطائيون — جاء ناس على قرب عصر بيركليس الى آثينة فاتخذوا تعليم الحكمة صناعة واجتمع لهم كثير من التلاميذ انشؤا يتقاضونهم أجور الدروس التي يلقونها . وجعلوا ديدنهم الانكار على الدين والعادات واصول ادارة المدن اليونانية يوهمون انها غير مبنية على العقل . ويأخذون من ذلك ان المرء لا يعرف شيئاً صحيحاً (مما كان قريباً من الصواب في عيدهم) وليس في طاقته ان يعرف امراً صدقاً كان او زوراً قال احدهم : لا وجود لامر ومتى وجد صعبت معرفته . ويدعى هؤلاء المعلمون للتشكيك بالسفسطائيين . وقد خص بعضهم بملكة الخطابة .

سقراط والفلاسفة — حاول سقراط احد شبوخ آثينة ان ينكر على السفسطائيين و يوقفهم عند حدهم على فقر حاله وبشاعة منظره ولكنة لسانه ولم تكن له دروس يلقيها كاولئك السفسطائيين بل يكتفي بالرواح الى المدينة يخاطب من يصادفهم من جماعتهم بكثرة و يجملهم بكثرة الاسئلة على ان يفكروا فيما ينكر فيه بنفسه . وكان بحثه مع الفتيان خاصة

بعلمهم وينصح لهم . ولم يكن يظاهر سقراط انه شدا شيئاً من العلم بل كان يقول ان غاية علمي انني ادري بانني لا ادري . وود لو دعي فيلسوفاً اي محباً للحكمة لا حكيماً كسائر تلك الزمر . ولم يتدبر شيئاً من طبيعة الكون او مسئلة من مسائل العلم بل كان همه دراسة احوال الانسان . وكانت حكمته في قوله : اعرف نفسك . فكان من ثم مبشراً بالفضيلة . واذ انه كثيراً ما كان يخوض في الموضوعات الاخلاقية والدينية عدّه الاثينيون سفسطائياً . وفي سنة ٣٩٩ مَثل امام المحكمة متهماً بانه يتجافى عن عبادة ارباب المدينة وانه يحاول ادخال ارباب جديدة اليها ويفسد على الشبان عقائدهم فلم يحاول ان يدافع عن نفسه بل حكم عليه بالموت وكانت سنه اذ ذاك سبعين سنة فانتصر له كسينوفون احد تلاميذه والف افلاطون من الفلاسفة محاورات اقام فيها سقراط زعيم المحاورين فاعتبر من ذاك العهد ابا للفلسفة اما افلاطون فقد كان صاحب مذهب معروف (٤٢٩ — ٣٤٨) ولخص ارسطو تلميذ افلاطون (٣٨٤—٣٢٢) علوم عصره كافة في كتبه وقد انقسم الفلاسفة الذين اتوا بعد المعلمين ارسطو وافلاطون قسمين دعيت شيعة افلاطون بالرواقيين وشيعة ارسطو بالمشائين (لان ارسطو كان يعلم وهو يروح ويغدو)

الموسيقيون — كان من العادات القديمة ان يرقص القوم في الحفلات الدينية فيمر جمهور من الفتيان حول مذبح المعبود ثم يرجعون واقفين كالاشراف وقفة ذات معان واشارات . اذ كان القدماء يرقصون باجسادهم كلها ويختلف رقصهم كثيراً عن رقصنا وهو ضرب من التطواف الحماسي اواشبه برواية ذات ايماء وكان هذا الرقص الديني ابداً مشفوعاً باغان تعظيما للارباب ويسمى جمهور الراقصين والمغنين جماعة الموسيقيين . ولم تدن كلها جماعة من الموسيقيين ومنعم ابناء اشرف العيال يعدون كذلك بعد ان يستعدوا زمناً . ومن فرط العناية ان يكون خدمة الرب جديرين بخدمته .

الروايات الفاجعات والهزليات — كان يحتفل الفتيان في الارياف المجاورة لآثينة كل عام باقامة المراقص الدينية اكراماً للرب ديونيزوس اله الكرمة وكان بعض هذا الرقص متثاقلاً يمثل اعمال المعبود فيضرب رئيس جماعة الموسيقيين على وتر اغنية ديونيزوس ويصور جوقه رفاقه وهم اناس لهم ارجل تيوس يسكنون الغابات ثم يأخذون في تمثيل عيش ارباب أخر وابطال قدماء . ثم خطر لاحدهم ان ينصب مصطبة يجيء ممثل يلعب عليها عند ماينقطع جوق الموسيقى عن الضرب بانغامه . وهكذا تم المشهد ونقل الى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسي او مجتمع السوقة فنشأت من ذلك الروايات الفاجعات .

اما الرقص الآخر فكان مضحكاً فينكر الراقصون وجوههم ويتغنون بمدائح الرب

ديونيزوس وقد شابوها باضاحيك يسلون بها الحضور او بتصورات هزلية في حوادث حدثت ذاك اليوم . وقد صنع في الجوق الهزلي ما صنع في الجوق التجمع من ادخال ممثلين ومحاورات ونقل المشهد الى آثينة وهكذا نشأت الروايات الهزلية (الكوميديا) من اجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل الى يوم الناس هذا ابطالاً اما الروايات الهزلية فتمثل حياة كل يوم واحتفظت الفاجعات (المأساة) والهزليات ببعض اصلها وظلت تمثل امام هيكل الرب وان تكن فاجعة ولئن غدا الممثلون وهم جلوس على المصطبة اصحاب موقع في المشهد فقد ظل جوق التمثيل يرقص ويتغنى وهو يطوف حول المذبح وكان جماعة الموسيقيين في الروايات الهزلية كما كان يجيء المتكررون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة .

الملاهي — جعل في منحدر قلعة الاكروبول ملعب للرب ديونيزوس اله الكرمة يسع ثلاثين الف متفرج وذلك ليحضر الآثينيون كافة هذه المشاهد . وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوفاً تحت السماء ومؤلفاً من درجات من الحجر مصفوفة على شكل نصف دائرة بازاء جماعة الموسيقى حيث كان يطوف المنشدون وامام المشهد الذي تمثل فيه الرواية . ولا تقام المشاهد فيه الا في اوقات اعياد الارباب بيد ان المشاهد كانت تدوم اذ ذاك عدة ايام متوالية يبدأون في الصباح عند بزوغ الغزالة ويمثلون للحال ثلاث فاجعات وقصة هجوية تنتثي على ضوء المشاعل من الليل والفاجعات الثلاث يؤلفها واحد وتمثل فاجعات اخرى في الايام التالية وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء والامة تعطيهم جوائز الاستحسان واشهر هؤلاء المتبارين اشيل وسوفقلس واريبدس . وقد عهدت المسابقة ايضاً بين مؤلفي الروايات الهزلية ولم يؤثر من كل ما الفوه من الروايات غير قطعة واحدة للفيا اريستوفان الشاعر الهزلي .

المقامات اللزومية

ما زال الزمان يرينا من آثار الاندلسيين كل سفر جليل ويكشف لنا عن عنايتهم بجميع العلوم ما يدل على عظيم اقتدارهم وسمو افكارهم لا سيما في العلوم الادبية التي هي عنوان رقة الشعور وصفاء الذوق فقد تفننوا في طرق الانشاء واساليب البلاغة بما لا يدخل تحت الحصر. اسعدني الحظ في الاستانة بالوقوف على المقامات اللزومية وهي عبارة عن خمسين مقامة في مكتبة (جامع لاله لي) للوزير الكاتب الامام ابي الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي الاندلسي انشأها عند ما وقف على ما انشأه الرئيس ابو محمد الحريري بالبصرة وبناها على احسن اسلوب والتزم في نثرها ونظمها مالا يلزم وقد وجدت على ظهر الكتاب ما نصه (المقامات الخمسون) المحتوية على معاني الادب للوزير الكاتب الامام ابي الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن ابراهيم التميمي المازني السرقسطي ويعرف بابن الاشتركوني ابو الطاهر . قال ابن الزبير : كان اديباً لغوياً شاعراً كاتباً معتمداً في الادب فرداً منقدماً في ذلك في وقته روى عن ابي علي الصفدي وابي محمد بن السيد وابن البادش وابن الاخضر واخذ عنه ابو العباس بن ضا قال : وعليه اعتمدت في تفسير كامل المبرد لرسوخه في اللغة العربية وله المقامات اللزومية الشهيرة وشعره كثير مات بقرطبة يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادي الاولى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ومن شعره

ومنعم الاعطاف معسول اللمى ما شئت من بدع المحاسن فيه
لما ظفرت بليلة من وصله والصب غير الوصل لا يشفيه
انضجت وردة خده بتنفسي وظللت اشرب ماءها من فيه

وهاءنذا اذكر المقامة الاولى تفكهة للقراء ورجاء ان يطلع عليها من لهم عناية بنشر آثار السلف فيمثلها للطبع فيفيد ويستفيد وهي هذه :

المقامة الاولى القفرية

قال: حدثنا المنذر بن حمام قال: حدث السائب بن تمام قال: انفي لفي بعض البلاد وقد اقويت من الطريف والتلاد استاف الارض واذرع الطول والعرض افتل الدهر في الذروة والغارب وارقب منه كل شارق وغارب قد افردني حتى الامل ونابذني حتى السعي والعمل عبر سفار ونضو مهامه وقفار ولا صاحب على طول الاغتراب الا رقراق آل وسراب اذ دفعت الى اباطح واجارع ومسارح ومشارع فاجلت الطرف في نور وزهر واحلت العيش على جدول اونهر واذا بلة كالنجوم يترامون من الكؤس بالرجوم يتهللون طلاقة ويتبذلون

خلاقة قد نبذوا الوقار واستخلوا العقار واستنفدوا العين والعقار وعوضوا من المسك الدّن والقار ثم عن شمائلهم الرياض وتخجل من ايمانهم الحياض قد غفلوا عن العواقب ولم يشعروا بالزمان المراقب « يحيون بالريحان يوم السباسب » وينتمون الى اكرم المناصب والمناسب قد لفهم الشباب في بُرُوده ورواهم من سلسله وبَرُوده ينتقلون بجنيات اللمم ويجرون فضول الريط واللمم والكاس قد تمشت في المفاصل فما ترى غير مساعد او مواصل قد نزلوا من الارض وهادا وافترشوا الروض مهادا واذا امامهم شيخ رائع السبلات ضخم العبلات يصغون الى حديثه ويفتنون بقديمه وحديثه فهو يعللهم من خبره بطرف ويهدي اليهم منه اندى تحف وطُرف يجب اليهم البطاله فما يملون منه اسهابًا ولا اطاله فملت الى منتداهم وكنت الذي حياهم وفداهم فقالوا : كرم رائع ومجد ضائع ونضو هازل وضيف نازل وابتدر الشيخ فقال: خبر ذائع وحديث شائع وخب هازل وعود بازل من اين ياشعث ويااشعب كلا امريك اشد واصعب لقد اجترأت على الملوك وتخللت نظم السلوك وركبت المهالك وتوغلت المسالك هل عندك من معزية ياهذيل فانك ما شئت من عُذيق او حُذيل أنى وانت اخو الصعاليك سموت الى ذري الرتب والمماليك فقلت: مهلاً ايها الشيخ مهلاً رهلا مرحباً بك واهلاً ان ترني وقد نفد زادي وصفر مزادي وطفئ شهابي واخلق اهابي وخشن اديمي ونفرعني صاحبي وديمي فلقد فلقت الكواعب وذللت المصاعب وارضيت الآمال وتسوغت الآمال وبذلت الخطير ووصلت التطير واكرمت النزيل ووهبت الجزيل وسحبت فضل الذيل وارسلت طرفي بين الخول والخيل وقدت الجياد ومُتعت القياد ثم لم يكن الا ان تقلبت احوال وتعاقبت سنون واحوال ذهبت بالحديث والقديم واثرت في الصميم والاديم فبدلت من النعيم البوس ومن البشر القطوب والعبوس وعوضت من العذب المجاج بالملح الاجاج ومن الاعتزاز بالاذلال ومن الاكثار بالاقلال فابتدر الشيخ يفديني بابنائه ويهديني بهنائه ويقول: انه لكما قال ومن اين لعاثر ان يقال انا اعرف آباءه واجداده وشهدت جموعه واعداده طالما ركب السرير ولبس الحرير وصبت اليه الكعاب وانقصفت دونه الكعاب وخضعت لجده الاملاك وكان به القوام والملاك لقد اطاعت الانداد واجابته الاعداد ودوخ البلدان فذل كل له ودان فيالك من دهر لا يبقى على احد ولا يتقى على مستأنس وخد يعنى بالقريب والبعيد ويولع بالشقي والسعيد ومن حق ذلك الفضل ان توصل اسبابه وترفع قبابه ويصان مُذاله ويحلى جيده وقذاله وانتم يابني الاكارم وذوي الهمم والمكارم رفوا الافاضل واعطفوا بالفواضل وارحموا عزيزًا ذل وكثيرًا قل ومثريًا ادفع وحائمًا على مورد كرفع فكل خلع ما عليه والقى بما عنده اليه وخلع عني تلك الاسمال وجاء بما شاء وشئت من كسوة ومال

ثملاً اليمين والشمال واستقبل الجنوب والشمال ثم قال اللهم يارافع الاعدام وجامع الانام وعالم الخفيات وميسر الخفيات وملطف الاسباب ومؤلف الاحباب متعهم بالمسرات والحبرات والحفهم بالمروط والحبرات وافض عليهم جدواك وزحزح عنهم بلواك واحرسهم عن الغير ولا تجعلهم عظة الامثال والسير وارسل عليهم من ستوك مديدا وخذ بهم من امرك سديدا وقال لي: خذها اليك . واذا كنت معك فلا عليك . فسرنا وقد اظل العشا وسقط عليه العشا يقودني زعم الى اسرته ويحادثني عن يسره وعسرته وجعل يومي ء و يشير و يقول هناك العدد والعشير كل له خول وطاعه ولك عليّ إمرة اطاعه فسرت حتى دنا بي الى خيام ومعشر نيام فقال: امكث هاهنا قليلاً حتى اريك جليلاً واكشف لك من امري عجيباً وافود لك سابحاً او نجيباً تحل من متن هذا في انيق وتسمو من ذروة ذاك على نيق ثم تتبوأ القصر المشيد وتخالف المأمون والرشيد فتخلل تلك الخيام وايقظ النيام فما شعرت الا بالقوم وقد اخذوني باللوم من المنتاب والطارق ولعله الخائن البارحة والسارق والا كف لاتكف واليمين تصفع والشمال لا ترفع ولا قول لي يسمع ولا انا في الحياة اطمع حتى طردوني عن حماهم ورموا بي الى مرماهم لا اقلب طرفاً ولا أقرر حرفاً والشيخ مع ذلك يرميني بسهامي ويعجب من صيبه وجهامي ويذكرني بالعهد ويقول ما احوجك الى المهد ثم انفصلت عني انصلانا وولى انسراباً وانفلاتا وهو ينشد .

دعا بي الدهر لو تجيب ياحبذا السامع المجيب
كم تصحب الدهر بالاماني يغرك الطرف والنجيب
فخذ حديثاً عن الليالي فكل انبائها عجيب
من خادع الدهر والبرايا فذلك السيد النجيب
المجد فوز الفتى بحظ فما تميم وما تجيب
يارب خدن تركت يوماً وحظه الوجد والوجيب
مجدلاً في التراب يدعى منه سميع فلا يجيب

فعلمت انه الشيخ ابو حبيب فقلت مالداء كيده من طبيب

دمشق محمد علي

المرأة في الاسلام (١)

ومن اوضح اوصاف النصرانية في عصورها الاولى حطها من قدر الزواج فكانت تعد هذا الارتباط من الاحوال المنحطة وتحسب البتين جناية وشرًا وكانت الاديار والصوامع حجبت عن العالم اصح العقول فكان خدمة الدين اما ان يمنعوا من الزواج بتاتًا او لم يؤذن لهم ان يتزوجوا غير مرة واحدة . وقد نشأ بعض هذا الانحراف عن التشبه بالمعلم نفسه وبعضه عن احوال متنوعة حملت النصارى الاول على تنظيم سلكهم .

وشدة تعلق نبيّ الناصرة باهل المذهب الاسني وانتظاره حلول الساعة في العاجل حين تنتهي جميع الارتباطات المدنية وانقضاءه بعثته وهو في مقتبل العمر كلها امور تجلو لنا اسباب حطه من قدر الزواج وكيف انه « لم يجن على احد » واجتماعه بالتعمديين وهو اسني يرشدنا الى طرف من حياته القصيرة التي تثير العواطف وشدة بغض بولس للنساء مع ما يعضده من كلام المعلم قوى في الكنيسة الاعتقاد الاسني بان الارتباط الزوجي وهو اقدس العقود انما هو اثم يجب تجنبه ما امكن وكان يحسب المقصود من الزواج ايلاد الاولاد وقضاء الشهوة البهيمية ليس الا . ولا تزال عقود الزواج في اكثر الكنائس مصبوغة بهذه الصبغة الخالية الى يومنا هذا ولا يزال هذا التصوّر الدخيل على النصرانية يذهب بالناس حيث لا توجد العلوم الكونية الى ان الرجل الذي لم يدخل دنيا قط هو افضل كثيرًا ممن تدنس بالزواج . ويوجيس الهند المعفر بالرماد ونساك الشرق مسبلو الشعور واحبار بوذا هم من اهل التبتل وعندهم ان ادراك العلم لا يتم الا بحل الروابط الاهلية وان الوصول الى الازل لا يمكن الا بعيش التوحد وقد اخذت النصرانية الاعتقاد بالتبتل عن مشككي المشرق وزهاده . ومن الناس من اتخذ عصمة المسيح من « الاثم » برهانًا على ألوهيته ومنهم من اتخذها حجة على شدة فضله على غيره من المشرعين وعندنا ان مقابلة فاسدة الاساس كهذه بين المسيح والنبي هي من الموهومات بتاتًا واساسها خطاء في تقدير المقاييس الاخلاقية . وان صح ان التبتل مما يجعل صاحبه كاملاً فالمتصوفون والنساك والدراويش هم اذًا الكاملون والحياة الكاملة تكون حينئذ بترك الروابط الاهلية وان من المحقق ان نظرية مثل هذه لا تعد الا انحرافًا

(١) تابع المعرب في الجزء الخامس من كتاب روح الاسلام للقاضي امير علي الهندي ولا يسعنا هنا الا ان نكرر ما سبق لنا الالماع اليه من ان بعض ما ورد في هذه المقالة من الافكار والاحكام فيه نظر عند فئة من اهل العلم ولكن الامانة قضت بان ننشره بحرفه وعلى علاته حبّ الاطلاع (المقتبس)

عن الفطرة وما تنيجتها الا الدمار . اذاً لم يأتِ هذا الحط من قدر النبي وهو الذي اكمل بعثة المسيح ألا نه تزوج بغير واحدة وقد بينا الحكمة في زواجه المتعدد وسعينا على الاقل في بيان ان هذه الاعمال التي اتخذت للحط من قدره انما هي من باب ايثار الغير .

ولننظر الآن في امر زواجه بالنظر المطلق ولنسأل انفسنا لم تزوّج موسى بغير واحدة أكان في عمله هذا من اهل الفضيلة ام من اهل الرذيلة ؟ ولم تمتع داود بزواج لا حد لهُ ومكانته عند الله معلومة ؟ والجواب بسيط وهو ان لكل زمان مقياساً خاصاً ومعياراً مقدراً وما يوافق زمناً واحداً لا يوافق غيره . ومن الواجب ان لا نقيس الماضي بالحاضر . وان امثلة الفضيلة من اهل الكمال لا يخسرون شيئاً من عظمتهم اذا عملوا بمقتضى زمنهم وكانوا في عملهم امناء شرفاء . ايجوز ان ندعو المسيح طامعاً خيالياً يحاول العبث او ان ندعو موسى وداود شهوانيين يسفكان الدماء لان عقل الاول كان مفعماً بتخيلات ملك منتظر وسلوك الاثنين الاخيرين هو مما ينتقد في القرن التاسع عشر . اننا لو فعلنا ذلك لاخطأنا في كلا الحالين لأن اماني المسيح واعمال موسى وداود هي من الحقائق التاريخية التي مشت على مقتضى الزمن

ومن اوضح ميزات النبي انه وهو في اسمى حالاته لم يتعم عن الاحياء منتظراً جيلاً لم يولد بعد وهو يمثل في نموه نمو البشر . وان المسيح وتمدّاً لم يقدرا على تغيير الجمعية البشرية دفعة او محو كل ترتيباتها السياسية الملية . وهو كالمسيح اكتفى ان يغير المقتضيات الحالية بزرع مبادىء تلاشي هذه المقتضيات متى حان الوقت المناسب ولنجحت في قلوب اتباعه .

اما القول بان النبي ميز نفسه بمنافع حرمها على اتباعه فهو من الوهم الناشيء عن الجهل لان حد تعدد الزوجات لم يوضع الا في المدينة بعد الهجرة بسنين وما أُبيح لهُ كان عبئاً وضع قصداً على ذي وجدان يحاسب نفسه في اعمالها بدلاً من ان يكون لذة لكل متهتك . وحدث كل زواجه قبل نزول الحد ومما نزل مع هذا الوحي التحديدي وحي آخر نزع من النبي كل امتياز فاصحابه أُبيح لهم اذا راعوا حدود الشرع زواج مثنى وثلاث ورباع وكان لهم ان يكرروا زواجهم بقوّة الطلاق الذي كان يكرهه اما هو فقد حرم عليه طلاق اية من زوجاته او ان يضيف اليهن زوجة اخرى . أيُعد هذا امتيازاً انتفاعياً ام عملاً انسانياً يراد به القيام باود من احتمى به وايثاره

وسبب موضوع الطلاق في الاسلام اغاليط وجدلاً الا انه مما لا شك فيه ان احكام الطلاق القرآنية هي اعدل من احكام الطلاق في سائر الكتب . وقد حسب حق الطلاق في الامم الخالية كافة نتيجة لازمة لسنة الزواج الا ان هذا الحق كان محصوراً في يد الجنس

الاقوى الا في النادر ولم تخوله الزوجة في حال من الاحوال . وان تقدم المدنية وترقي الافكار حسنا من حال المرأة بعض التحسين فالنساء ايضاً حصلن على نوع من هذا الحق الذي لم يقصرن في استعماله . حتى صارت سهولة عقد الزواج وحله في الامبراطورية الرومانية من باب الاكتفاء باللفظ . وللزوج في شريعة العبرانيين ان يطلق زوجته لاي سبب يقبحها في عينيه . وكاد لا يوجد عندهم ما يحدد سلطته هذه وهواه ولم يجوّزوا للزوجة المطالبة بالطلاق بحال من الاحوال . وعدل الشمعيون عادة الطلاق بعد ذلك نوعاً من التعديل بوضع بعض الشروط الا ان الهلاليين حافظوا على الناموس وابقوه على صورته الاصلية . وعند ظهور النبي كانت سنة الهلاليين هذه هي الجارية بين يهود جزيرة العرب وكان الطلاق منتشراً عندهم كما كان منتشراً عند جيرانهم الوثنيين

اما الطلاق عند الاثينيين فكان بيد الرجل كما كان عند الاسرائيليين . وقد اباحت الاحكام الرومانية الطلاق منذ ابتدائها وكذلك الالواح الاثنا عشر . واذا صح ما يقوله المحبون بالرومانيين من انهم لم يتمتعوا بهذه العادة الاّ بعد ان مضى على تأسيس رومية خمسمائة سنة فليس ذلك من دواعي فضلهم على غيرهم لانه ابيح للزوج عندهم ان يقيل زوجته لاسباب معينة كالسم والخمر الخ ولم يجز للمرأة ان تطالب بالطلاق واذا التمست مفارقته فان تهورها يجعلها اهلاً للقصاص . الا ان كثرة الطلاق في الجمهورية اللاحقة كانت علامة ظاهرة على انحطاط الآداب وسبباً ونتيجة له في آن واحد

ذكرنا هاتين الامتين لانهما اشهر الامم الخالية ولان افكارهما اثرت في الافكار المعاصرة اشد التأثير . ولا ينكر ان صبغة احكام الطلاق عند الرومانيين صبغة ارتقائية ونتيجتها رفعة المرأة ومساواتها بالرجل وهذا ناشيء عن تقدم الافكار كما هو ناشيء عن غيره من الاسباب الخارجية .

« وكلمة المسيح التي تتضمن امره في الطلاق مرنة تقبل اي تفسير تتطلبه حكمة المقننين » ولنا ان نقول ان المسيح لما قال « فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان » لم يكن في تصوره الاّ اقتلاع حطة الاخلاق وانه لم يفكر في نتائج كلامه ويدل الحكم الملحق القاضي بجعل الزنا السبب الوحيد لجواز الطلاق على تنبه المسيح لمقتضى الحال (١) الا ان حكمة المقننين التالين

(١) لم يذكر انجيلان من الاناجيل السبب الذي حمل المسيح على الاذن لتلاميذه بتطليق نسائهم (مرقص ١٠ — ١١ ولوقا ٢٦ — ١٨) واذا حسبنا الاخبار الواردة في هذين الانجيلين اصح مما يسمى بانجيل متى نقول حينئذ ان المسيح بينا كان يعلم آداباً سامية لم يقصد ان يعمل بكلامه حرفياً بل كان قصده اقتلاع جرثومة الكفر وفساد الاخلاق ليس الا . ونحن نعتقد ان المسيح قصد بجوابه المنبه تجنب ايلام الشمعيين والهلاليين

لم تقف عند التمسك الاعمى بحكم وضع في الغالب لجمعية في طفوليتها . ويمكن ان تحسب قاعدة المسيح مبدأ يدل على شعور سام لا ان تحسب نموذجاً في حكم الطلاق هو مما ترده الاصلاحات التي أُضيفت الى هذه القاعدة في الاعصر التالية في البلاد النصرانية

ولم يقيد حق الطلاق في الجاهلية والجاهليون لم يراعوا في نسائهم عدلاً او شفقة الا ان النبي نظر الى هذه العادة بعين السوء وعد استعمالها مما يهز اركان الاجتماع وكثيراً ما صرح بان لا شيء يرضي الله اكثر من عتق الرقاب ولا شيء يغضبه اكثر من الطلاق ولكن كان من المستحيل عليه اقتلاع هذه العادة بتاتاً من بين الأعراب وهم على ما كانوا عليه . فمن ثم تحتم عليه ان يهذب جمعية ساذجة على جانب عظيم من التوحش ويعدها لحالة اسمى حتى اذا حان الوقت ونضجت الافكار نمو مبادئه وتزهر اخلاقه في قلوب البشر ولم تكن تلك العادة شراً محضاً لذلك اباحها للرجل على شروط معلومة فاجاز للزوجين مُمدداً ثلاثاً يمكن لهما في غضونها أصلاح ذات البين فاذا لم يتم ذلك جرى الطلاق ؛ ووضع قاعدة التوسط والحكم فيما اذا حدث نزاع بينهما . قال المسيو سريو وهو ممن لم يفضله احد في تحليل الاحكام الاسلامية : « اجيز الطلاق ولكن وضعت له رسوم تفضل الغاء طلاق مستعجل لم يتروَ فيه . ولكي يكون الطلاق مما لا يقبل الرجعة تلزم ثلاث طلقات متعاقبة يفصل ما بينها شهر واحد » .

ولقد احدثت اصلاحات النبي تغيراً جديداً في الشرائع المشرقية فهو وضع حداً للطلاق ومنح النساء حق المفارقة لاسباب معقولة وفي اواخر ايامه بلغ به الحال انه حرم الطلاق اذا لم يوجد حكم وقال « ان ابغض الحلال الى الله الطلاق » لانه يمنع السعادة ويضر في تربية البنين . لذلك نرى من اللازم ان لا نفسر اباحة الطلاق في القرآن التي لها صورة العادات الخالية الا بعبارات الشارع نفسه ومتى عرفنا امتزاج القانون والدين في الاسلام يسهل علينا فهم مقاصد الشارع في حكم الطلاق .

ومن المنتظر اختلاف المذاهب في اباحة الطلاق للزوج من غير مداخلة القاضي . وقسم مهم من الفقهاء بعد الطلاق الصادر عن الزوج محرماً الا لضرورة كالزنا مثلاً وجماعة أخر واكثرهم من المعتزلة لا يبيحون الطلاق مالم يجزه حاكم الشرع وهم يذهبون الى ان اباحة الطلاق تتوقف على حكم قاض عدل لا يميل مع احد الخصمين ويستندون في ذلك على كلام الشارع الذي ذكرناه وعلى قاعدته في وجوب انتخاب حَكَم لفصل الخلاف بين الزوجين ويذهب الاحناف والشافعيون والمالكيون واكثر الشيعة الى اباحة الطلاق لا لغير سبب

وبعد ان اعترض صاحب « رد المحتار » على القائلين بتحريم الطلاق قال « واما الطلاق

فان الاصل فيه الحظر بمعنى انه محظور الا لعارض يبيحه وهو بحسب قولهم الاصل فيه الحظر ومع ان الفقهاء اتخذوا الاباحة الموئلة قاعدة دائمة وجعلوا كثيراً من قواعد العدل التي وضعها الشارع فان الاحكام التي سنوها اعدل كثيراً وارحم بالنساء من اكمل الشرائع الرومانية التي نشأت في حجر الكنيسة. وجوّز الفقهاء للمرأة طلب الفراق لسوء الاستعمال وسوء المعيشة وغيرها من الاسباب لكنها اذا لم تأت بحجة مقبولة في طلبها هذا تخسر صداقها. وعلى كل فمتى صدر الطلاق عن الزوج وجب عليه ان يعطيها صداقها الذي كانا عيناه وقت الزواج.

وتكرار نصح القرآن للزوجين ان لا يفترقا وتحريضه على حسم المنازعات بالتسوية الشخصية يدلان على احترام الشارع لعقد الزواج وفي سورة النساء «وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً والصلح خيرٌ وأحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً. ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيماً» (١)

وجاء فيها ايضاً «وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيرا»

والاجانب اما انهم لم يدركوا احترام الزواج في الفقه الاسلامي اولم يقدروه قدره. جاء في الاشباه والنظائر وهو كتاب اسلامي مشهور ما خلاصته: ان الزواج سنة وضعت لحفظ الهيئة الاجتماعية ولكي يحفظ الناس انفسهم من الفحش ويخلصوا اعراضهم من الدنس وهو مقدس وضعه الله بامره لانه عبادة تحفظ البشر من اختلاط النسل ومتى عومل معاملة الشركات والاتفاقات يكون ارتباطاً دائماً يُبنى على اتفاق اثنين رجل وامرأة لم يكن بينهما ما يمنعها من اتفاق مشروع

وكثيراً ما قيل ان النبي اباح لاتباعه التسري فضلاً عما اباحه لهم من الزوجات الاربع الشرعيات الا ان ذكر الحكم المختص بهذه المسألة يكفي لبيان بُعد ذلك عن روح الاسلام. جاء في سورة النساء «ومن لم يستطع منكم طولاً ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات .... ذلك لمن خشي العنت منكم وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم»

---

(١) هذه الآية ايضاً حجة على الذين يذهبون الى ان الشريعة تبيح تعدد الزوجات لمن يتعذر بينها وبين «فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة»

وقد بنى الفقهاء اباحة التسري بالجواري على هذا الاساس الضعيف وعلى احوال خاصة حدثت في ابتداء ظهور الاسلام. وهذه المسألة مع مناقضتها لروح الشريعة سببت بعض الحملات الشديدة على الدين الاسلامي. والتسري هو ارتباط السيد بالأمة من غير جواز زواجي كان معروفاً عند العرب واليهود والنصارى وجميع الامم المجاورة ولم يحرمه النبي في اول الامر الا انه في اواخر ايامه منعه صراحة جاء في سورة المائدة « اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان »

فابل القسم الاول من هذا الامر بتعصب الكنيسة التي منعت زواج النصراني بغير النصرانية وكثيراً ما كان الحرق نصيب الكافر الذي يتزوج النصرانية ومن هنا يظهر الفرق بين هذه القاعدة والقاعدة الاسلامية التي هي ترق ظاهر في المعيشة والمدنية

اما تحريم زواج المسلمات بغير المسلمين فاسبابه مقتضيات سياسية حدثت في اول تأسيس الجمعية الاسلامية . وغير نكير ان كثيراً من العادات التي اخذها المسلمون عن الجاهليين والتي بقيت ككثير من بقايا نشوء سالف مالت بالامم الاسلامية نحو الانحطاط ومن هذه العادات عادة الحجاب فقد كانت منتشرة بين الامم الخالية منذ اقدم العصور والجينكونيتس Gynaikonitis كانت من السنن المعروفة عند الاثينيين ونساؤهم كن محجوبات عن الانظار العامة كالفارسيات والهنديات اليوم والجينكونوفي Gynaikonowi هم مثل زملائهم من المشارقة حرس البيت يراقبون النساء بدقة شديدة . ونشأت من احتجاب المرأة بالطبع طبقة الهتري التي كان لبعض اعضائها اثر مهم في التاريخ الاثيني . ولولا المظهر الخارق للعادة التي ظهرت به الدولة البيزنطية والدول الاوروبية والاميركية لقلنا ان منشأ الطبقة البائسة التي تظهر في كل هيئة اجتماعية تقدمت ولو قليلا في الصناعات المدنية والتي هي خطر على البشر وعار على المدنية هو انسحاب المرأة وحرمانها من حقها المشروع في تهذيب العقول وتمحيصها وترقية عواطفها . ومن خواص العقل البشري انه متى لم يدرك النقي يسعى في ادراك المشوب . وخير مثال لقولنا هذا في الازمنة الخالية البابليون والاتروسكانيون والآتيليون والجاهليون من اهل مكة .

ومنشأ الفساد العمراني الذي ينسل الى كل قلب ويسمم دماء الامم المعاصرة هو انتشار عبادة المادة مغطاة بغشاء من الدين رقيق سواء كان نصرانياً او اسلامياً او غير ذلك . وقد نشأ النبي منذ صباه من انتشار فساد الآداب لتخيف بين اهل مكة واتخذ اقوى وسيلة

موافقة لاقتلاع جرثومته قال بسورث سمث : « والقوانين النبي الشديدة في اول الامر تم بالشبه الادبي الذي حدث من هذه القوانين بعد ذلك نجح حتى يومنا هذا وكان نجاحه اشد من غيره في تخليص البلاد الاسلامية » حيث لم تظفر بالاجانب « من هؤلاء المتشردين الذين يعيشون بشقائهم وهم بوجودهم طبقة معروفة يخجلون كل فرد من الهيئة التي ينتمون اليها »

ومن المحقق ان سنة الحجاب لها منافع كثيرة في الهيئات الساذجة التي لم يستنب عمرانها بل ان الحجاب لا يستقيم بتاتاً في بلاد تختلف فيها طرق التهذيب وتتباين الاخلاق تبايناً كلياً . وهي منتشرة اليوم بين اقوام يبعدون كثيراً عن التأثير الإسلامي الذي يظنه بعضهم السبب في حجاب المرأة في بلاد الهند وغيرها من البلاد الشرقية ففي بلاد كوريا بلغ حجاب المرأة درجة الهزء والسخرية وفي الصين وفي المستعمرات الاسبانية في جنوبي القارة الافريقية لا تزال عادة الستر محافظاً عليها . ولما قام النبي كانت منتشرة بين الفرس وغيرهم من الامم المشرقية فادرك منافعها وربما استحب للنساء العزلة والتفرد لانتشار فساد الاخلاق بين جميع الطبقات ولكن لا يقال انه اراد ان يكون انفرادها على هذه الصورة الجامدة المعروفة اليوم او انه اذن بالحجاب او اوصى به هو مخالف لروح اصلاحه كل المخالفة وليس في القرآن ما يدل على ان الحجاب هو جزء من هذا الدين . جاء في سورة الاحزاب « ياايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً » . وفي سورة النور « وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن الآية » .

ارشادات سهلة الفهم في وسط ذلك الاضطراب الذي كان النبي يسعى في اخراج الترتيب منه بهداية الله — ارشادات حكيمة يقصد منها نشر الحشمة والادب بين النساء وتحسين لباسهن وسلوكهن ووقايتهن من الاهانة . فمن الخطإ اذاً ان نعتقد في الدين ما يثبت هذه العادة . ومما يفسر استحسان النبي العزلة للنساء تفسيراً ظاهراً تمتع افراد بيته تمتعاً لا مانع فيه ولا حجاب . وهذه عائشة ام المؤمنين وزوج النبي بعد وفاة خديجة دبرت الحملة على علي وهي قادت عساكرها في وقعة الجمل وكثيراً ما دخلت فاطمة ابنة النبي في مبحث الخلافة وان زينب سبط النبي واخت الحسين حمت ابن اخيها من الأمويين بعد كربلاء وصلابة اخلاقها هالت عبيدالله بن زياد القاسي ويزيد القليل الرحمة .

وكان انحطاط الاخلاق الذي اجتث اصول العمران في الجاهلية وعند الاسرائيليين

والمسيحيين في اشد الحاجة للاصلاح . ومما لا شك فيه ان استحسان النبي العزلة للنساء قصد به استئصال جذور الفساد ومنع عادة تعدد الازواج المخيفة التي كانت شائعة في الجاهلية الى زمن البعثة .

قال فن همر « ان الحريم بيت مقدس يُمنع منه الاجانب لا لأن النساء ليست حرية بالثقة بل لما البستهن العادات من ثياب التقديس وشدة احترام النساء في اعالي القارة الآسياوية والاوروبية (في البلاد الاسلامية) مما يظهر للعيان »

واتخاذ النساء مثالاً كاليًا ميزة طبيعية تمتاز بها ارقى الشعوب الا ان العجب القومي والتعصب الديني احدثا نظريتين متناقضتين لرفعة المرأة بين الطبقات المهذبة في البلاد النصرانية اليوم . احداهما ترجع هذه الرفعة لما يسمى عند النصارى بالمار بولتري او تأليه العذراء وعبادتها والثانية للفروسية في القرون الوسطى المزعوم انها من نتائج المبادىء التيوتونية اما من حيث النصرانية وعلاقتها بالنساء فكلما غضضنا الطرف واوجزنا في المقال نجسن لها لاننا نرى الكنيسة في العصور الاولى - حينما كان دين القوم من جميع الطبقات عبادة ام المسيح جردت المرأة من اوصاف الفضيلة والبستها رداء من شتم وحرمان وكتب آباء الكنيسة الواحد تلو الآخر فصولاً طوالاً في قبح النساء وميلهن للشر وتأصلهن في الخبث . وقد مثل ترتليان افكار معاصريه في المرأة في كتاب يقول فيه « انها باب الشيطان وفاتحة الشجرة المعلقة تاركة الاوامر الالهية مهلكة الصورة الرحمانية وهي الانسان » . وذكر كاتب اخر باستخفاف انه فتش عن العفة في النساء فلم يجد لها اثرًا . ومثل كريزستوم وهو من كبار القديسين رأي الكنيسة في المرأة بقوله انها شر ضروري ومحنة طبيعية ومصيبة ملازمة وخطر مبين وسحر مميت وضرر مزين وقد حرمت الكنيسة على النساء القيام بالوظائف الدينية كلها الا ما كان منها وضيعاً ومنعتهن من حضور الجمعيات الخاصة والعامة ومن الذهاب الى الجفلات والاعياد وامرتهن ان يعتزلن الناس وان يصمتن ويطعن رجالهن وينصرفن الى النسج والغزل والعجن وان يحتجبن من فروقهن الى اقدامهن ان خرجن من بيوتهن — هكذا كان حال المرأة ايام كانت المار بولتري سائدة بين الناس . وفي الايام التالية وفي المدة التي انقضت بين انقراض الدولة الغربية واستتباب العمران الاوروبي الحاضر وهي مدة وصفت بانها « زمن الاغتصاب والمداهنة والاستبداد والشهوة والعنف » حسنت النصرانية من حال المرأة بعض التحسين بادخال مسألة الاديار للرهبان والراهبات وهذا التحسين المشكوك فيه لا يصلح الا لعصر كان اختطاف المرأة فيه من الامور المعتادة وبلغ فساد الاخلاق فيه درجة لا توصف . ولم تكن الاديار معاهد الفضيلة ابدًا وكذلك لم تكن الرهبانية اشد

حفاظ لطهارة الذيل والعفاف . وفي بومية ريكو المذكور فيها زياراته الدينية مايوضح خاصة حال الاخلاق ومقام المرأة في ابهى دور « من عصر الايمان » ولم يؤثر قيام الانجيليين شيئاً في احوال المرأة او في افكار المشرعين المختصة بها . والخلاصة ان المسيح اكرم المرأة اما اتباعه فحرموها من العدل والانسانية .

والنظرية الثانية التي اشرنا اليها وهي الشائعة بين طبقة كتاب الروايات في اوروبا فهم يحسبون ان كل من قام في الاعصر المتوسطة هو بيرد او كريشتين . والمظنون ان عصر الفروسية يمتد من ابتداء القرن الثامن الى انتهاء القرن الرابع عشر « وهي المدة المعاصرة لحكم الاموبين في الاندلس » . الا ان المرأة في هذه المدة وان احاطت بها هالة من الشعر والروايات فكثيراً ما كانت موضع الشر والاذى وكانت القوة والخداع اوصافاً مميزة للعصر الذهبي عصر الفروسية النصرانية . وكان اولند وآرثر حديث خرافة حتى التقى الغرب بمدنية الشرق . ولم تكن الفروسية ابنة المجاهل الاسكندناوية او الحراج الجرمانية لان النبوة والفروسية كلتاهما من نتاج الصحراء . فمن الصحراء قام موسى وعيسى ومحمد ومن الصحراء اتى عنترة وحمزة وعلي .

وكانت المرأة عند الحضر من العرب وهم ممن انتحلوا المباديء الشائعة بين السوريين والفرس والرومانيين على غاية من الانحطاط كما ذكرنا لكنها كان لها عند بعض الرحل حرية حسنة وتأثير قوي في احوال القبيلة قال برون « ولم تكن كاليونانية موضع البؤس والشقاء » فكانت ترافق الرجال الى الحرب وتبث فيهم روح الحماسة والنخوة وكان الكماة يخوضون عباب الحرب متغنين بمديح الاخت او الزوجة او المحبوبة وعندهم ان ما يكافيء به الحبيب هو خير مكافأة لهم عن صولتهم وبطشهم . وكانت الشجاعة والكرم خير خصال الرجال والعفة خير خصال النساء . وربما لو اصابت امرأة في القبيلة سُبة او لحقها عار استعرت لها لظى الحرب بين قبائل الجزيرة كلها . وما اسباب حروب الفجار التي استعرت نارها اربعين سنة حتى اطفأها النبي ثائرتها الا سُبة لحقت ابنة فتية في سوق عكاظ

وقد حول النبي عادة حسنة الى اعتقاد ثابت فاصبح احترام المرأة باباً من ابواب الاسلام ونرى في كثير من الاحوال التي تعكس لنا صورة عصره الساذج ان سننه تبعث على الشهامة والمروءة في معاملة المرأة اكثر من سنن سائر المعلمين السابقين ويختلف الاسلام كالنصرانية باختلاف الافراد والعصور لكن المروءة الخالصة كانت في الاجمال اكثر مصاحبة للاسلام منها لغيره .

وكما كان بطل الاسلام وابن مؤسس حلف الفضول على أهبة محاربة اعداء الله بسيفه

ورحمه كذلك كان على اهبة للاخذ بناصر الضعيف والمظلوم ولم يعده الداعي الملوح المستجير سواء كان في سهول العراق او ما هو اقرب للجزيرة فارساً يأتي للاخذ بناصره وجبر كسره. وكانت اعمال شؤلاء الفرسان تدوّن في الاخبار وتنتقل من الخيمة الى القصور فتؤثر في صولة الاجيال التالية وان الخليفة التي من يده يوماً قدح الشراب في دار ضيافته لما بلغه ان فتاة عربية قالت وهي في اسر الرومانيين لم لا يأتي عبدالملك لتخليصي (١) وعاهد نفسه على ان لا يذوق شراباً او ماء حتى يخلص تلك الفتاة من الاسر فسار من وقته بجيش عرم على الرومانيين الانذال وما برّ يمينه حتى ملكت تلك الفتاة امرها. وان احد الملوك المغوليين وهو الملك همايون بينما كان يسير الى كابل والافغانيون يطاردونه وصنه سوار ملكة مؤاخية وهو علامة على الصداقة وطلب المساعدة فترك شؤونه الخاصة واعاد كرته وكسر اعداءها ثم عاد الى سيره السابق.

وسمى عنترة ابا الفروسية وكان علي مثالها الكمالي جمع الشهامة والشجاعة والكرم وكان نقي القلب رقيق الخصال عالماً لا يخاف ولا يوبخ فوضع امام الناس اشرف مثال لمتانة الاخلاق والشجاعة والمروءة وقد ظلت مبادئه — وهي صورة مبادي معلمه — البلاد الاسلامية وكانت الروح المحرك المحيي لكثير من الاجيال التالية. وكان من امر الحروب الصليبية انها جمعت الغرب البربري بمدنية الشرق الاسلامي فنبهته الى عظمة المسلمين وترفهم. وكان تأثير مسلمي الاندلس خاصة في جيرانهم النصارى هو الباعث على ادخال الفروسية في الغرب ولم يكن التروبادور والتروفور الذين قاموا في جنوب فرنسا والمنسنجر الذين قاموا في البلاد الجرمانية والذين تغنوا في الحرب بانانشيد العشق والشهامة الا تلاميذ رومنسور قرطبة وغرناطة ومالقة وقد استمد بتروك وبكاشيو بل تاسو وشوسر من الينبوع الاسلامي الا ان خشونة البرابرة الغربيين في عاداتهم وتصوراتهم كانت الفروسية ثوباً خشناً.

وبقيت المرأة في الاعصر الاسلامية الاولى حتى سقوط الدولة العربية في المشرق تشغل مكاناً عالياً كمكان المرأة المعاصرة فزبيدة امرأة الرشيد قامت بعمل عظيم في عصرها وتركت بحكمتها وادبها اسماً يفتخر به المتأخرون. وان جميدة امرأة الفاروق ادبت ابنها في غياب زوجها حتى صار من اشهر علماء عصره وكان اسمه ربيعة الرأي. وكانت سكينة ابنة الحسين وسبط علي اذكى اهل زمانها واكثرهم فضيلة وتهذيباً وقد سماها بروس « سيدة سيدات زمانها » ووصفها بانها « اجملهن وارفهن واوضحهن اخلاقاً » وجمعت الى علمها حسن

(١) المشهور انه المعتصم

استماعها لحديث العلماء والصالحين . ولقد عرف نساء بيت النبوة بعلمهن وفضيلتهن وتصلب اخلاقهن . وكانت بوران امرأة المأمون واخته ام الفضل امرأة الامام الثامن العلوي وابنته ام الحبيب كلهن مشهورات بالعلم . وقامت في القرن الخامس من الهجرة السيدة سكينة الملقبة بفخر النساء والقت دروساً عامة في مسجد بغداد الجامع موضوعها الادب والبيان والشعر ولها في تاريخ الاسلام شأن يساوي شأن اشهر العلماء . وماذا كان يصيبها يا ترى لو انها نشأت بين اخوان القديس سرل والجواب يظهر مما اصاب هيباتيا وكان من الممكن ان لا يتزقها اولئك المتحمسون ولكن من المحقق انها كانت تحرق كالساحرات وكانت ذات الهمة (المحرقة في اللغات الاوروبية الحازمة) قلب الاسد وصاحبة كثير من الوقائع تحارب مع اشهر الفرسان جنباً لجنب

وقد اعترف كل من لم يتعصب من الكتاب باصلاح المرأة الذي اتى به النبي . على ان المتعصبين لا يزال ديدنهم القول بان الاسلام حط من مقام المرأة — تهمة لا اكذب منها — وان تسعة عشر قرناً من قرون النشوء والترقي عملت مع ما اورثته مدنية سابقة واحوال مناسبة على جعل المرأة في اكثر البلاد النصرانية اعلى درجه من الرجل بالنظر الاجتماعي اي وُلِيت آداباً تعترف على الاقل بحق المرأة بالافضلية الاجتماعية . ولكن ما هو حقها الشرعي يا ترى حتى في انظم البلاد النصرانية . وان المرأة المتزوجة كانت في البلاد الانكليزية حتى في عصر متأخر جداً لا يعترف لها وحدها بحق من الحقوق دون زوجها . والآن اذا لم تبلغ المرأة المسلمة في مئة سنة آتية مقام اختها النصرانية الاجتماعي فثمة وقت كاف للحكم القاضي على الاسلام ورده . الا ان معلماً اتى في عصر لم تعترف فيه امة من الامم او دين من الاديان او جمعية من الجمعيات بحق للمرأة سواء كانت بكراً او متزوجة . وعاش في بلاد تعد ولادة الابنة مصيبة ومع ذلك خول النساء حقوقاً لا تخولهن اياها الحكومات المتمدنة اليوم الا كرهاً — ان معلماً كبيراً مثل هذا حري بثناء الخلق واعترافهم له بالجميل ولو لم يفعل غير هذا لصدق في دعواه انه ارسل رحمة للعالمين . وان حقوق المرأة المسلمة كما هي مدونة في كتب الفقهاء لا تقل عن حقوق المرأة الاوروبية اليوم واننا لا نتعرض هنا لغير الضمانات التي تضمن حقوقها في الشريعة الاسلامية وهي ان المرأة ما دامت غير متزوجة تبقى في بيت ابيها وما دامت دون سن البلوغ فابوها يسوسها ومتى بلغت اشدها فان الشريعة تخليها بيدها ما يخصها من الحقوق من غير ان يشركها شريك في ذلك . ولها حصة معلومة في ميراث ابويها كاخواتها واذا اختلفت النسبة فذلك لاختلاف المقام . ولا يمكن اجبار البالغة على زواج واحد حتى السلطان في حال من

الاحوال (١) ولا تحسر المتزوجة بزواجها حقوقها الخاصة والزوجة على الزوج صداق مقدم فاذا لم يدفعه تحكم الشريعة لها بصداق يناسب درجتها . والزواج الاسلامي عمل مدني لا يحتاج الى قسيس او رسوم معلومة (٢) وان عقود الزواج الاسلامية لا تخول الرجل سلطة على الزوجة وراء ما عينته الشريعة له عليها ولا تعطيه حقاً من الحقوق بالتسلط على امتعتها او ثروتها . فحقوقها من حيث انها امٌ لا يتوقف الاعتراف بها على وساوس القضاة المختلفي المشرب والتربية . وما كسبته بيدها لا يتمكن من اتلافه زوج مبذر وان زوجاً شرساً لا يقدر على الاساءة الى زوجته من غير عقاب وهي تدير امرها بيدها متى كانت بالغة من غير مداخلة زوجها او ابيها . وتداعي غرماءها في المجالس العلنية من غير ان تضطر الى الانضمام الى رفيق ثان او تحت اسم زوجها وبعد ماتترك بيت ابيها تبقى لها الحقوق التي يخولها الرجل . وان امتيازاتها من حيث انها ام وزوجة لا تضمنها المجاملات المتقابلة ولكن تضمنها الاحكام المسطرة في كتاب الشرع . ونقول اجمالاً ان حالتها لا تقل عن حالة كثير من نساء الغرب ومن المحقق انها في كثير من الشؤون ارفع منهن مقاماً وتأخرها بالنسبة الى الغربيات ناتج عن قلة التهذيب بين الطبقات عامة لا عن شيء خاص في احكام الفقهاء .

بيروت عبد الرحمن شهبندر

الازمة المصرية

يقول علماء الاقتصاد ان لايجاد الثروة ثلاثة عوامل كبيرة لا غنية لاحدها عن الآخر وهي العمل والمادة ورأس المال . فينشأ العمل بنشر التعليم بين طبقات الامة وجعله عملياً ونظرياً ومتى توفرت الهمة على العمل توفرت المادة . ورأس المال اهم من العنصرين الاولين وبدونه لا يقوم مشروع . ولقد ساعد مصر في هذا الربع الاوّل من القرن الرابع عشر للهجرة تحسين طرق ريها بفضل مهندسين بارعين وطنيين واجانب وتنظيم طرق الجباية وانتشار الامن بعض الشيء في بلاد الاقاليم والحواضر الكبرى واصلاح احوال المحاكم وامن

(١) بقي ملوك الغرب يجبرون البنات على زواج رعاياهم قروناً عديدة بعد ما وضع الفقهاء تلك القاعدة .

(٢) ان العادات الوثنية التي اكتسبها مسلمو الهند والعادات الخالية التي كانت قبل الاسلام في سورية ومصر والتي لا تزال باقية ليست من الاسلام في شيء

الناس على ارواحهم واعراضهم واموالهم فكان من ذلك ان كثر العمل والمادة الاصلية موجودة في تربة البلاد وجودة مائها وهوائها وبقي رأس المال فحصل بعضه بقوة العمل وحسن المعرفة بتصدير حاصلات البلاد الى الديار الاجنبية وجاءت على الاثر الشركات تحمل رؤوس اموالها العظيمة تتجر بها وتستثمر الاطيان والاراضي وتبني المصانع والمعامل القليلة وتضارب وتقرض وتمدّ .

جاءت تلك الشركات واكثرها اوربية فرأت من سير البلاد نحو التقدم ما نشطها واعانها على ما تنشده استتباعاً بالامتيازات الاجنبية فضوعفت ثقتها باعمالها وثقة الناس بها وقد تساهلت الحكومة في الترخيص لها فتم لها ما ارادت من المغانم وبذرت عشرات الملايين من الجنيهات في وادي النيل تستغلها في كل ما رأت الربح فيه من الاعمال وكثر عددها حتى بلغت مائتين واربعين شركة بعد ان لم تكن منذ عشر سنين اكثر من خمسين شركة ولا يقلّ رأس مالها عن مائة مليون جنيه .

هذه الشركات وتحسين صادرات البلاد واكثرها من القطن هي التي اتت مصر برأس مال عظيم ولما كثر المال في الايدي ارتفعت اسعار العقارات والمنقولات والاراضي . وقد كان لخزان اسوان يد طولى في زيادة الثروة وما عولت الحكومة عليه من تعليته ثانية بحيث يُقدّر ان ما سيحيا به من الاراضي الموات نحو تسعمائة وخمسين الف فدان فاذا كان ثمن الفدان الواحد خمسين جنيهاً فتكون قد زادت ثروة القطر من هذه التعلية وحدها نحو ثمانية واربعين مليون جنيه .

وقد انصرفت معظم هذه الشركات الى ابتياع اراض زراعية وتحضت لاصلاحها وبيعها من صغار الفلاحين بعد . وطفق بعضها يبتاع اراضي للبناء في ضواحي الحواضر كالقاهرة والاسكندرية فارتفعت بذلك اسعار الاراضي ولا سيما اراضي البناء لانها دخلت في دور المضاربة يضارب بها زيد فيربح فيأتي عمرو ليضارب بها ويبيعها بثمن اغلى حتى بيع الفدان الذي يؤجر بخمسة عشر جنيهاً في ظاهر القاهرة بزهاء ثلاثة آلاف جنيه ومعظم الاراضي التي أُبيعت في سوق المضاربات لا تشتد حاجة الناس الى البناء فيها ولو بلغ سكان القاهرة ثلاثة ملايين نسمة فما بالك وهي لم تتجاوز السبعمائة الف .

ولما رأى بعض الاهالي هذه الارباح راحوا يقلدون الغريبين في المضاربة مع قلة اختبارهم وعدم مرانهم على اعمالها هذا والمصارف تمد الناس في الاعتمادات وتلي لم تعطي صاحب الالف عشرة آلاف . وربما تثق بمن لا يوثق به فواغرق في هذه المضاربة كثير من الارمام والاسرائيليين والسوريين ممن هبطوا مصر ليغتنوا فيها في زمن قصير . وكان من

اثر تطوح البيوت المالية في امداد الناس بالمال وتطوح المزارعين والمضاربين في الاستلاف ان كثر التعامل بالربا وربما زاد معدله عن معدل الربح الصافي المتعامل به ودخل السوق المالية كثير من المحتالين المتلاعبين والسماسرة واحسنوا استخدام غفلة ابن البلاد ليربحوا بما يضره ويجر عليه الخراب في العواقب .

ولما تجاوزت المضاربات حدود المعقول ارادت البيوت المالية التي نشرت اموالها في القطر ان تتوقف قليلاً في فتح الاعتمادات لمصارف مصر فتوقفت هذه عن الاقراض بالطبع وهناك حدثت ازمة رنت في ارجاء العالم انتهت بخراب بيوت مئات كانوا اغتنوا بالوهم اذ استحقت عليهم اموال لا مناص لهم من ادائها في اوقاتها وقبضت المصارف ايديها عنهم ولم تقف الازمة عند حد المضاربات بل تجاوزت الزراعة والتجارة وصادف ذلك موسم وقوف دولاب الاعمال وهو يقف بالطبع في فصل الصيف في مصر فتأذى من تلك الهزة كثيرون كما كان انتفع بتلك الهبة كثيرون وبات الذي اغتنى في اقل مدة وقد صفرت كفه من الدراهم واضاع آخر ما ملك بالوهم من مال المضاربات غير المعقولة .

وزاد الحال اعضالاً توسع القوم في الاسراف وفساد الاخلاق والاغراق في تقليد المترفين من الغربيين وبطر الفلاح النعم ولم يحسن التقليد لان الثروة جاءته عفواً صفواً فدهش لها وبهرته زبارجها وزخارفها واطارت لبه فتوسع في شراء الاطيان ولا سيما ما كان منها للحكومة فقسمته وباعته بالاقساط فصح على الفلاح المصري ما قاله الفيلسوف جول سيمون في الفلاح الافرنسي من قوله : « من اعظم الخطوب التي تصيب المزارعين اقتراضهم المال بالربا ذلك ان الفلاح يحب الارض فيستدين لشراء قطعة منها فلا يلبث ان يصبح مثقلاً بالديون لانه لم يأخذ لنفسه الحيطة خصوصاً اذا اصابته سنة بجوائحها السماوية واتت على مزروعاته فاضرت به ضرراً لا يستطيع معه القيام بحاجات ارضه ومسكنه لقلة دراهمه . وفي اقتراض المرابي للزارع على نسبة ارضه وعقاره نفع كبير للمرابي على انه ليس للزارع الا وسيلة لا تبلغ الغرض ودواء يسكن الم حاجته تسكيناً موقتاً . وافضل الفلاحين من كانت اراضيه متناسبة مع مقدرته بحيث يتأتى له ان ينظر فيها نظراً بليغاً ويتعهدها في كل فصل من فصول السنة المرة بعد المرة والزراعة من اشد الشؤون في الاحتياج الى نظر القائم عليها اكثر من احتياج سائر الحرف واذا اتسعت اراضي الزارع وتناءت عنه فهو فلاح بالاسم وماحك جسمك مثل ظفرك .

« ومن كان له من المال والعلم ما يرغبه في الزراعة كأن يريد ان يجعل بالمال زراعة لا زراعة بالمال فيتخذ له مزارعاً يقوم مقامه ولو بعض القيام لئلا يخسر وتدعو خسارته الى

تثبيط عزائم جيرانه . الارض تستدعي رجلاً صنعته تعهدها واستنباتها كما ينبغي فارس للفرس وبطل لحمل السيف . واقصى ما تحتاجه الزراعة زارع منوّر وعامل خبير له من الارض ملكاً كانت ام ايجاراً ما يسمح له نشاطه بادارته ومتى زاد على ذلك فيكون صاحب مزارع ليس الا . واذا ضاقت عليه ارضه يتعذر عليه ان يقوم بما تقتضيه اياه من النفقات والتحسينات » .

هذا ما قاله سيمون ولكن الفلاح المصري لم يشكُ جائحة سماوية ولو لم يكن النيل على وفائه معه وصادف انه خانه سنة او سنتين كما حدث ذلك في ادوار التاريخ الماضية لخرب معظم المزارعين المصريين ولا سيما الكبراء منهم ممن ابتاعوا اراضي ولم يروها وبقيت سنين في ملكهم وهم لا يعرفون موقعها فكيف لهم ان يتعهدوها ويحسنوا استنباتها واستثمارها .

وقد اضر بالبلاد ان رؤساء معظم الشركات والقائمين على المضاربات هم من شياطين الانس يعرفون من اين تؤكل الكتف لصيد الدرهم ولو بتطبيق اعمالهم على القانون صورةً واعان على حدوث ما حدث ان الحكومة حصرت وكدها في تنشيط البلاد في امورها المادية الصرفة بحسب ما اداها اليه اجتهادها ولم تعر ارتقاءها الادبي جزءاً من تلك العناية وذلك لانها كانت ولا تزال تقول ان حالة البلاد المالية اذا حسنت فالادبيات تجيء تبعاً لذلك ولكن الشرق يحتاج الى غير هذه السياسة الاقتصادية . يحتاج الى المعنويات كما يحتاج الى الماديات والا فتبقى الثروة بيد الاجانب او معظمها وتجني البلاد الضرر العظيم لانها لا تعرف كيف تسير كما جرى للمصري في العهد الاخير . ولو كانت اسباب التربية والعلم منتشرة بين المصريين كانتشار الشؤون الزراعية ولو اخصبت العقول كما اخصبت التربة لما صارت الحال الى ما صارت اليه من الاسراف والتبذير .

قال احد كبار الماليين كان من الواجب لفت انظار القطر الى الامور الضرورية المطلقة النافعة من مثل تعلم الاقتصاد الشخصي ليكون منه الارتقاء الاقتصادي للبلاد كلها وانهيال الثروة عليها وانه تجب عناية الافراد وان لا يخاطروا بما يقتصدونه الا في مشاريع ذات فائدة مضمونة وان لا يعتمدوا في مواردهم على ما تحسن به عليهم المضاربات من الارباح . فحسنات المضاربات ليست ثابتة ولا سليمة . قال ولو تعلم المصريون هذا التعليم لكان لهم منه اعظم رادع عن المضاربة في الاراضي بحيث ارتفعت اسعارها بمال استقرض من الخارج بدون ان يكون متلائماً مع ايرادها والسبب في عدم وقوف الناس عند حد الاعتدال في مطالبهم وغرورهم بالثروة المجنية هو الجنون في المضاربة الذي ضم الى الارباح الحقيقية ارباحاً كاذبة وهمية فتبخرت في الخيال كالماء او كالسراب وساعدها فقدان التربية المتينة العامة التي

لو نالت مصر قسطها منها لاستنارت العقول ووقفت البلاد على حقيقة سر الحياة الاقتصادية أشربت معرفة جمع الثروة الحقيقية الثابتة وحسن التعقل في صرفها .

صحف منسية

نثر ابن زيدون

كتب ابن زيدون من قرطبة الى ابن مسلمة باشبيلية قبل تحوله اليها

ياسيدي وارفع عددي . واول الذخائر في تعددي . واخطر علق ملأت من اقتنائه يدي . ومن ابقاه الله في عيشة باردة الظلال . ونعمة سابغة الاذيال . قد تناصر الثناء عليك . وتوالى الحديث الحسن عنك . حتى حللت محل الامانة . وكنت موضع تقليد الوطر واثبات الطوبة . والله يمتعك بما حازه لك من الخير . ووفره عليك من طيب الذكر .

في ملك اعزك الله ما تقتضيه العطلة من اطلاق الخاطر وصداء النفس ويجنيه طول المقام من إخلاق الدبباجة وارخاص القدر وقد رأيت ان اجتني ثمرة من آداب اطلت الاعتناء بها . واخلاق ادمت رياضة الانفس عليها . ولما فحصت الملوك وجدت عميدهم الذي انسى السالف قبله . ونقدم الراهق (؟) معه . واتعب العابر بعده . الحاجب فخر الدولة مولاي . ومن اطال الله بقاءه . وكبت اعداءه . بما خصه الله به من سناء الهمم . وشماخة الشيم . وانتظام اسباب الرياسة . وكمال آلات السياسة . واجتماع المناقب التي افردته من النظراء . واعلته عن مراتب الاكفاء . فرأيت قبل ان احمل لغيره نعمة . واوسم ممن سواه بصنعة . ان اعرض نفسي مملوكته عليه عرض من لا يؤهلها لاجازته الا بالاستجازة ولا يطمع لها في قبوله الا مع المسامحة . فلو كنت الوليد بن عبيد براعة نظم . وجعفر بن يحيى بلاغة نثر . وابراهيم بن المهدي طيب مجالسة . وامتاع مشاهدة . ثم حضرت بساطه العالي لما كنت مع سعة احاديثه الا في جانب التقصير وتحت عبدة النقصان غير انه لا يعدم مني نجابة غرس اليد واصابة طريق المصنع من ولاية أخلصها . ونصيحة أنحضبها . وشكر اجنيه الغض من زهراته . وثناء أهدي اليه العطر من نفحاته . فنهضت اليك هذه السفارة . واعتمدتك بتكليف النيابة . لوجوه منها حظوتك لديه . ومكانتك منه . سوغك الله الموهبة في ذلك وانهضك باعباء الشكر لها ومنها سرو مذهبك . وكرم سجيتك . وصحة مشاركتك لمن يستوجبها استيجابي . ولا استدعاها بمثل اسبابي . من تداني الجوار . وتصافي السلف

والانتماء الى آصرة الادب. فان وافقت السانحة الارادة لحظ أقبل . وعبد بلغ من سيده ما امّل. ولم افل عمرك الله كما قيل في النجمين . بل قلت وقد يجمع الله الشتيتين . وان عاق حرمان عادته ان يعوق عن الظفر و يعترض دون الامل فأعلمه ابده الله اني في حال العطلة مع غيره والتصرف . و بومي الايطان والتطوف . كالمهتدي بالنجم حين عدم ذكاء ومتيمم الصعيد اذا لم يجد الماء .

فان اغشَ قوماً غيره او ازرهم فكالوحش يدنيه من الأنس المحل

والله يتولاه بالنصيحة في عمره . والاعلاء لامره . و يصرف الاقدار مع ايثاره . و يصرف وجوه التوفيق الى اختياره . ولك ياسيدي في انتدابك كما ندبتك له ما للساعي النجح من الشكر . او للمجتهد البالغ من العذر . وملاك الامر تقديم المراجعة للايجاب فاسكن اليه . والجواب فاعتمد عليه . وأهدي اليك ندى الغض الناضر من سلامي والارج العطر من تحيتي . اه

وله رسالة خاطب بها ابا مروان بن حيان المؤرخ المشهور قال في فصل منها وقد اهداه احمالاً من الزيت والبر في سنة نحلة .

والذي اسكن اليه من حسن قبولك . وجميل تأويلك . اقابل بالحقير . واواجه بالتافه اليسير . و يعلم الله تعالى اني لو تاحفتك (قاسمتك ؟) عمري ما رأيت ان ذلك كفوء لقدرك . ولا وفاء ببرك . فكيف ما دونه فلك المنزلة التي لا تسامى . والجلالة التي لا توازى . وما شيء وان جل الا محتقر لك مستصغر عند محلك . و يصل مع موصل كتابي هذا ما ثبت ذكره في المدرجة طيه وانت بتعاليك تتفضل بقبوله وتصل اجمل صلة بالتغاضي عن رثاثته . والاستجازة لنزارته . مقتضياً بذلك شكري وحمدي ومستبدأ منهما بجميع ما عندي . اه

وقد راجعه ابن حيان برقعة يقول فيها : ان تفجأة المسرات الباغتة لآمال النفوس الحائمة صدمات تذهل الجنان وتعقل اللسان فمن فرح النفس ما يقتل ومن باهر الصنع ما يذهل . ولا كمثل ما فاجأتني به من فضلك المبتدر ميقانه على وفاض من الازودة وخمود من المصابيح وضغطة من الظنون المخوفة لنكد السنا لم يشغلك عن جودك شاغل حتى قضيت نذرك فيّ لاول وقته ولم ترض بعادتك المتكلفة لي بشأن الدين حتى تحملت عني ثقل القوت فطرقني فطار هديتك الفاجئة غداة اصبحت فيها منفضاً من الزاد مستوفزاً للارتياد فكنت دهشاً فرحاً واستحال بياني بلها حتى نوّلت كتابك الكريم . فطرت في لآليه فنالني به اهتزاز لذكرك وارتياح لقولك فجوزيت جزاء المحسنين بما ارحت من فكري فكشفك في اديم

يوم همّ عام مع انك قبلت شكري فلا فضل فيه لمقابلة معروفك الا بامحاض الدعاء لك في حراسة مهجتك ودوام نعمتك واستبصار الملك الاعلى عميد الورى مستكفيك في حسن رأيه فيك اعاذك من عين الكمال ووقاك طوارق الايام والليال وحفظ على زماننا ما فيك من كرم الخلال وانهضك بما التزمته من احناث من اقسم في عصرنا ان اجود عدم لا ينال بمنه وبمنه اه . وقد طوينا في هذه الرسالة بعض الفاظ لسقم النسخة المنقول عنها .

شعر ابن زيدون

في دار الكتب الخديوية بالقاهرة نسخة خطية من ديوان بحتري المغرب ابن زيدون وقع في ١٠٧ ورقات صغيرة تغلب عليه الصحة في الغالب ولم يذكر فيه تاريخ ليعرف به الزمن الذي كتبت فيه وقد كتب في آخره مانصه : تم شعر ذي الوزارتين ابي الوليد احمد ابن زيدون وشعر الملكين والحمد لله وحده.

وان خير ما يقرظ به ديوان صاحب قصيدة « اضحى التنائي بديلاً من تجافينا » التي بعث بها الى ولادة بنت المستكفي بالله ان يكتفي بنقل شذرات منه تدل على مبلغ ذاك الشعر من العراقة في الحضارة والرقة . وقد اتصل بنا ان اديباً من دمشق قد مثل هذا الديوان البديع للطبع او كاد ولا شك ان اصحاب القريض سيسرون بنشره بينهم .

قال ابن زيدون يمدح ابا الوليد بن جهور احد ملوك الطوائف وهي اول ديوانه

هذا الصباح على سراك رقيبا ... فصلي بفرعك ليلك الغربيبا (١)
ولديك امثال النجوم قلائد ... الفت سماءك لبسة وتريبا
لينب عن الجوزاء قرطك كلما ... جنحت تحث جناحها تغريبا
واذا الوشاح تعرضت اثناؤه ... طلعت ثريا لم تكن لتغيبا
ولطالما ابديت اذ حييتنا ... كفاً هي الكف الخضيب خضيبا
اظنينة دعوى البراءة شأنها ... انت العدو فلم دعيت حبيبا
ما بال خدك لا يزال مضرجاً ... بدم وخطك لا يزال مريبا
لو شئت ما عذبت مهجة عاشق ... مستعذب سيف حبك التعذيبا

---

(١) قوله * فصلي بفرعك ليلك الغربيبا * من قول ابي الطيب

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها ... في ليلة فارت لياليَ اربعا

وينظر اليه ايضاً قول المعري

يود ان ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر (ذخيرة)

ولزرته بل عدته ان الهوى مرض يكون له الوصال طبيبا
ما الهجر الا البين لولا انه لم يشجُ فاه به الغراب نعيبا
ولقد قضى فيك التجلد نحبه فنثوى واعقب زفرة ونحيبا
وارى دموع العين ليس لفيضها غيض اذا ما القلب كان قليبا
مالي وللايام جَّ مع الصبى عدوانها فكسى العذار مشيبا

وقال مع تفاح اهداه الى الوزير الاجل محمد بن جهور

اتتك بلون الخيب الخجل مخالط لون المحب الوجل
ثمار تضمن ادراكها هواء احاط بها معتدل
تأتى لالطاف تدريجها فمن حر شمس الى برد ظل
الى ان تناهت شفاء العليل وانس المشوق ولهو الغزل
فلو تجمد الراح لم تعدها وان هي ذابت فخمر تحل
لها منظر حسن في العيون لدنياك لكنه منتقل
وطعم يلذ لمن ذاقه كلذة ذكراك لو لم تُمل
وريا اذا نفحت خلتها تملي ثناك او تستهل
يثل ملمسها للاكف لين زمانك او يمتثل
صفوت فادللت في عرضها ومن يصف منه الهوى فليدل
قبولكها نعمة غضة وفضل بما قبله متصل
ولو كنت اهديت نفسي اخ تصرت على انها غاية المحتفل

وكتب الى الاديب ابي بكر مسلم بن احمد رسالة يتنصل بها

شحطنا وما للدار نأي ولا شحط وشط بنى نهوى المزار وما شطوا
اءاحبابنا الوت بحادث عيدنا حوادث لا عقد عليها ولا شرط
لعمركم ان الزمان الذي قضى بشت جميع الشمل منا لشتط
واما الكرى مذ لم ازركم فهاجر زيارته غبٌّ والمسامه فرط

الى ان يقول وهو مما ذكر له في القلائد

عدا سمعه عني واصغى الى عدى لهم في اديمي كلما استمكنوا عط
بلغت المدى اذ قصروا فقلوبهم مكامن اضغان اساودها رقط
يولونني عرض الكراهة والقلى وما دهرهم الا النفاسة والغبط
وقد وسموني بالتي لست اهلها وذُيّن امثالي بامثالها قط

فورت فان قالوا الفرار أرابه فقد فرّ موسى حين همّ به القبط

وقال وهو السحر الحلال

ساحب اعدائي لانك منهم يامن بهم بقلبه ويسقم
اصبحت تسخطني وامنحك الرضى محضاً وتظلمني فلا انتظم
يامن تألف ليله ونهاره فالحسن بينهما مضيء مظلم
قد كان في شكوى الصبابة راحة لوانني اشكو الى من يرحم

وله سقى الغيث اطلال الاحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشي منمنما
واطلع فيها للازاهير انجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدما
اذ العيش غض والزمان غلام

اهيم بجبار يعز واخضع شذا المسك من اردانه يتضوع
اذا جئت اشكوه الهوى ليس يسمع فما انا في شيء من الوصل اطمع
ولا ان يزور المقلتين منام

قضيب من الريحان اثمر بالبدر لواحظ عينيه ملين من السحر
وديباج خديه حكى رونق الخمر والفاظه في النطق كاللؤلؤ النثر
وريقته في الارتشاف مدام

سقى جنبات القصر صوب الغمائم وغنى على الاغصان ورق الحمائم
بقرطبة الغراء دار الاكارم بلاد بها عقّ الشباب تمائمي
وانجبني قوم هناك كرام

فكم لي فيها من مساء واصباح بكل غزال مشرف الوجه وضاح
يقدم افواه الكؤوس بتفاح اذا طلعت في راحه انجم الراح
فانا لاعظام المدام قيام

ويوم لدى البنى (؟) في شاطيء النهر تدار علينا الراح في فتية زهر
وليس لنا فرش سوى يانع الزهر يدور بها عذب الثنا اهيف الخصر
بفيه من الشعر الشنيب نظام

ويوم بحوحي (؟) الرصافة مبهج مررنا بروض الاقحوان المدبج
وقابلنا فيه نسيم البنفسج ولاح لنا ورد بخد مضرج
تراه امام النور وهو امام

واكرم بايام العفاف السوالف وهو اثرناه بتلك المعاطف

بسود اثيث الشعر بيض السوالف اذا رفلوا في وشي تلك المطارف
فليس على خلع العذار ملام

وكم مشهد عند العقيق وجره فتدنا على حمر النبات وصفره
وظبي يسافينا سلافة خمره حكى جسدي في السقم رقة خصره
لواحظه عند الدنو سهام

فقل لزمان قد تولى نعيمه ورثت على مر الليالي رسومه
وكم رق فيه بالعشي نسيمه ولاحت لساري الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام

وله وقد قال فيها صاحب الذخيرة انه كتب بها من بطليوس ايام تكدره عليها وهي من غرر نظامه ودرر كلامه

يادمع "صب" ما شئت ان تصوبا ويافؤادي آن ان تذوبا
ان الرزايا اصبحت ضروبا لم ار لي في اهلها ضريبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا في الغرب اذ رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذيبا ادنى الضنا اذ ابعد الطبيبا
ليت القبول احدثت هبوبا ريح يروح عهدها قريبا
بالافق المهدي الينا طيبا تعطرت منه الصبا جنوبا
يبرد حر الكبد المشبوبا يامتبعاً إساءه التأويبا
مشرقاً قد سئم التغريبا اما سمعت المثل المضروبا
ارسل حكيماً واستشر لبيبا

اذا اتيت الوطن الحبيبا والجانب المستوضح العجيبا
والحاضر المتفسح الرحيبا فحي منه ما رأى الجنوبا
مصانع تجاذب القلوبا حيث الفت الرشأ الربيبا
مخالساً في وصله الرقيبا كم بات ليلي بدره الغريبا
لما انثنى في سكره قضيبا تشدو حمام حليه تطريبا
هصرته حلو الجنى رطيبا ارشف منه المبسم الشنيبا
حتى اذا ما اعتنت لي مريبا شباب افق همّ ان يشيبا
بادرت سعياً هل رأيت الذيبا(١) اهاجري ام موسعي تأنيبا

(١) اخذه من قول الراجز يصف لبناً ممذوقاً جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط وهذا

من لم أسغ من بعده مشروبا ما ضره لو قال لا تثريبا
ولا سلام يلحق القلوبا فلا سلام لحق المقلوبا
قد طال ما تجرّم الذنوبا ولم يدع في العذر لي نصيبا
ان قرت العين بان اوّبا لم آلُ ان استرضي الغضوبا
حسبي ان احرم المغيبا قد ينفع المذنب ان يتوبا

وقال ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقربت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت للفراق علامات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا يجري الدموع الحمر منها جراحات
وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات

مطبوعات ومخطوطات

المانيا الحديثة ونشؤها

صدر هذا الكتاب النفيس في الشهور الاخيرة باللغة الافرنسية من قلم المسيو هنري ليشتنبرجي من اساتذة كلية السوربون في باريز وهو في نحو اربعمائة صفحة تلونا في مسطوره آثار عظمة الامة الجرمانية وارتقائها في آدابها وعلومها وصنائعها واخلاقها واوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في خلال القرن التاسع عشر كل ذلك مكتوب بلسان الانصاف البحت اوحاه العلم الذي لا ينطق صاحبه من جانب القلب بعامل هوى النفس واملاه التمحيص الذي يتوفر عليه علماء الغرب اذا اخصوا في فن من الفنون وارادوا ان يضعوا فيه المصنفات الممتعة النافعة . وقد عددنا الظفر بهذا الكتاب نعمة لانا كنا نعرف درجة ارتقاء الالمان معرفة سطحية وذلك لان من اخلاق هذه الامة بل من اخلاق الامم السكسونية كالانكليز والاميركان ان لا يعمها التظاهر بعظمتها الحقيقية الا بعد ايراد الدلائل الحسية على ذلك وظهور نتائج الاعمال بالطبع .

ومما استفدناه منه ان الالمان لم يكتفوا بنزول بلادهم بل هم منتشرون في جميع بلاد اوربا ولا سيما فيما وراء تخومها من الجهات الاربع فقد كان سنة ١٩٠٠ في بلاد النمسا

التشبيه عند اهل النقد نوع من انواع الاشارة لانه اشار الى تشبيه لونه بلون الذئب بسبب شوبه بالماء الذي غلب على اللبن (الذخيرة)

٩١٧١٠٠٠ المماني اي ٣٦ في بالمائة من مجموع السكان يحيون فيها لغتهم وعضارتهم ونفوذهم وفي الاكثر في بوهيميا على كثرة مناضلة عنصر الصقالبة لهم . وعلى الرغم من معاكسة العنصر المجري للعنصر الجرماني لا يزال في بلاد المجر ٢١٣٥٠٠٠ المماني اي نحو ٣٣ في المئة من عامة السكان يحافظون على حالتهم وان شئت فقل يفلحون في الاعمال وينتشرون كلهم في اقليم كرواسيا سلافونيا من ديار المجر فانهم زادوا فيها اربعة اضعاف ما كانوا في النصف الثاني من القرن الاخير . وعدد الالمان في شرق المانيا من ولايات البلطيق من اعمال روسيا نحو ربع مليون وهم العنصر المتمدن المتعلم الغني . وفي جنوبي المانيا اي في بلاد سويسرا الالمانية يتراجع عنصرهم قليلاً بالنسبة لعنصر الولش وفي غربي المانيا ٣٢ الفاً اي في هولاندا والبلجيك الفلامندية و٦٨ الفاً في البلجيك ولوكسمبرغ

وما عدا هؤلاء فان هناك ملايين من الالمانيين غادروا المانيا على ان يعودوا اليها او هاجروا منها هجرة قطعية فمنهم جنود يخدمون الاجانب ودعاة دين للكثلكة او البرتستانتية ورواد في آسيا وافريقية يكتشفون المجاهل والمعالم ومهاجرون مدفوعون بعامل الفقر نزلوا وراء البحر المحيط اي في اميركا يبحثون عن الثروة وكل هؤلاء الالمان الذين طرحتهم النوى مطارحها والقتهم الاقدار في اطراف العمور كلهم عنصر قوي في جسم القوة الجرمانية ذو شأن عظيم .

قال المؤلف ومعلوم ان هجرة الالمان كانت متصلة بعد سنة ١٨٣٠ حتى انه يقدر عدد الالمانيين الذين غادروا المانيا في خلال القرن التاسع عشر بخمسة ملايين ومعظمهم بين سنة ١٨٨١ و١٨٩٠ وهكذا أسست منذ ذاك العهد مستعمرات المانية كثيرة واهمها مستعمرة الالمان في الولايات المتحدة ويقدر عدد الاميركيين الذين هم من اصل المماني بخمسة وعشرين مليوناً وبعشرة الى اثني عشر مليوناً تقرأ في جبهتهم المانيتهم وهم اما انهم يتكلمون بالالمانية او هم مولدون من آباء المان او انهم احتفظوا بعاداتهم وتهذيبهم بما قوى الرابطة بينهم وبين بلادهم الاصلية وكان هذا العدد الدثر من اعظم القوى الالمانية اذ لم يتشبه على ايسر وجه بمن نزل بين اظهرهم من الاميركان وينزع عنه اخلاقه وآداب جنسه في الجيل الثاني او الثالث واحياناً في الجيل الاول

ويبلغ الالمان في اميركا الجنوبية نصف مليون نسمة وهم فيها اكثر احتفاظاً بلغتهم وآدابهم واغنياء من الطراز الاول وفي اوستراليا يتشبهون بالعنصر الانكليزي السكسوني لاول امرهم وعلى العكس في النازحين منهم الى الشرق من جهات الاملاك العثمانية والروسية كقافقاسيا وتركستان وسيبريا من جهة وفلسطين من جهة اخرى فانهم احتفظوا باصولهم ولغاتهم وهم على قاب قوسين من النجاح والتقدم وهكذا الحال في سائر البلاد التي نزلوها في

آسيا ولا سيما في المستعمرات الهولاندية وكذلك في افريقية ولا سيما في مستعمرة الرأس

ويقدرون عدد الالمان في اوربا بستة وسبعين مليوناً ونصف يضاف اليهم نحو اثني عشر مليوناً منتشرين في اطراف القارات الاربع الاخرى منهم عشرة ملايين في الولايات المتحدة وار بعمائه الف في اميركا الشمالية وخمسمائة الف في اميركا الجنوبية وثمانية عشر الفاً في اميركا الوسطى و٦٢٣ الفاً في افريقية و١١٠ آلاف في جزائر المحيط و٨٨ الفاً في آسيا. وسنعرب من هذا الكتاب بعض فصوله لفائدة القراء

محمد علي

هي قصة تاريخية غرامية تشتمل على سيرة محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية من اول نشأته حتى قبض على ازمة الحكومة المصرية عربها عن الانكليزية نسيب افندي المشعلاني المشهور في تعريب القصص والفكاهات ونشرتها مجلة الهلال الغراء ملحقاً اياها تعويضاً لقرائها عن شهري الصيف وهما اللذان تحتجب فيهما هذه المجلة النافعة وقد جعلتها هدية لمن يؤدي قيمة الاشتراك من القراء لان مشتركي الجرائد والمجلات في الامة العربية لا يدفعون في الاغلب الا اذا حفزهم حافز ورغبهم مرغب كأن ما يتناولونه كل يوم او كل اسبوع او كل شهر من الافكار والابحاث لا يساوي وحده في نظرهم ان يقابل بثمن طفيف. وقد احسن رصيفنا صاحب الهلال بهذه القاعدة التي جرى عليها منذ سنين وفقنا الله واياه. والرواية عذبة العبارة جمة الحوادث والتفرعات الملذة وهي في زهاء ثلاثمائة صفحة من قطع الثمن فنحث عشاق الفكاهات على مطالعتها ونثني على ناقلها وناشرها بما يستحق فضلهما

ديوان صريع الغواني

صريع الغواني او مسلم بن الوليد شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية وهو فيما زعموا اول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو الذي لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة واشهرهم ابو تمام الطائي وكان حسن النمط جيد القول في الشراب وكثير من الرواة يقرنه بابي نواس في هذا المعنى توفي سنة ٢٠٨ وقد كان طبع ديوانه في اوربا واخذ واعاد طبعه الآن فئة من انصار الادب بيور سعيد فاحسنت ونعما فعلت وحبذا لو تتبعه بغيره من الكتب المطبوعة في اوربا وهي تعد كالمخطوطة في ديارنا لندرتها . قال مسلم في الحكم

شكا الزمان بما امضى به قدرا ... ان الزمان لمحمود على الابد
لن يبطيء الامر ما املت اوبته ... وان اعانك فيه رفق متئد
والدهر آخذ ما اعطى مكدر ما ... اصفى ومفسد ما اهوى له بيد

فلا يغرنك من دهر عطيته فليس يترك ما اعطى على احد

وقال من هذا النوع

كم رأينا من اناس هلكوا فبكى احبابهم ثم بكوا
تركوا الدنيا لمن بعدهم ودهم لو قدموا ما تركوا
كم رأينا من ملوك سوقة ورأينا سوقة قد ملكوا
قلب الله عليهم وركا فاستداروا حيث دار الفلك

مرآة الزمان

جرت عادة كثير من طباع الغربيين ان يطبعوا بالزنكوغراف كثيرًا من الكتب القديمة الخطية لا سيما اذا كان خطها بديعًا يغلب عليه الضبط والصحة وفي ذلك فوائد لا تحصى لان المالك نسخة من كتاب او رسالة طبع على هذه الصورة كأنه ملك النسخة الاصلية الفريدة في بابها وربما طبع الكتاب بهذه الطريقة لا لما ذكر بل لصعوبة النسخ او الطبع على الطريقة المألوفة ومن ذلك ما فعله الدكتور ريكارد جرت استاذ العربية في جمعة شيكاغو فانه طبع في الايام الاخيرة الجزء الثامن من مرآة الزمان للعلامة يوسف سبط ابن الجوزي وهذا الجزء يحتوي على مهم الاحداث من سنة ٤٩٥ الى سنة ٦٥٤ هـ ولعل بعض الطابعين في المشرق يقتفون هذا الاثر وان كان يحتاج الى عناء وكلفة فان في دور الكتب هنا وعند كثير من المولعين بها كثيرًا من الكتب التي يجدر ان تطبع على هذه الطريقة لا على الطريقة الاخرى

الفضيلة والرذيلة

جورج اونه من مشاهير كتاب فرنسا المعاصرين له عشرات من المؤلفات في التمثيل والقصص وكلها منتشرة بين الفرنسيس وهو من الناقمين على ارباب المجد والمال ولذلك ترى معظم كتاباته تدور على هذا المحور . وقد عرب منشيء هذه المجلة في هذه الآونة رواية من سلسلة روايات له كثيرة سماها جهاد الحياة نشرتها مجلة مسامرات الشعب في ٢٦٧ صفحة منصفة القطع وسميت «الفضيلة والرذيلة» وهي تمثل رجلاً من اهل الادب والقريض اتصل بفتاة ادبية وامرأة متأدبة فحاول ان يحل من الاولى محلاً دفعته عنه بفضل ادبها وتربيتها مع ان امها كانت معروفة بالخلاعة والتبذل وحل من الثانية وهي غنية من ربات القصور محلاً لا يليق بمن كتب وصنف ان يحله فاخذت ترفع مقامه بين خاصتها وتبوه ليصلح لها كتاباتها المنثورة والمنظومة لانها كانت مولعة بالتربية الادبية ولما تستعد لها

على اصولها وقد تخلل ذلك كلام في النقد على ارباب الرفاهية والمجد وطلاب الشهرة الباطلة مثال من تغفل بعض ارباب المطابع والجرائد والمجلات والمجامع العلمية في فرنسا مما تحتاج كل صفحة من صفحاته الى شرح طويل . وهذه الرواية تلذ مطالعتها الخاصة اكثر من العامة وهي تطلب من مجلة مسامرات الشعب وثمنها خمسة عشر قرشاً وتهدي لمن يشترك بالمجلة المذكورة

المجرم البريء

نشرت مجلة مسامرات الشعب القصصية هذه الرواية معربة بقلم كاتب هذه السطور ايضاً وهي رواية تلذ مطالعتها جمهور الناس تمثل صورة من صور التهور في الغرام الحرام وعواقبه المدمرة وذلك ان صاحب معمل في باريز كان في حالة حسنة من دنياه يعيش في غبطة مع زوجته وفتاته فساقه الغرور الى الاتصال بامرأة احد كبار المحامين استلت منه آدابه وماله ثم جمعته الاقدار في حرب السبعين مع زوجها وكان يعرفه من قبل معرفة بسيطة فتصادقا على الرغم منه وانقذ كل منهما حياة صاحبه في بعض المواقع فعاد صاحبه وقد قطعت ساقاه فلم ير صاحب المعمل ان يعود الى سالف عهده مع زوجة صاحبه بعد تلك الحقوق التي بينهما وراح يوبخ نفسه على ما قدمت يداه اما هي فكتمت الامر واخذت تدبر له مكيدة للانتقام منه بواسطة رجل كان قبض عليه صاحب المعمل في دار الحرب وهو يتجسس للعدو وسجنه ريثما ينفذ عليه حكم الاعدام فتفرّ في الليل وعاد الى باريز وتعرّف الى تلك المرأة وكان مطلعاً من قبل على شيء مما يدور بينها وبينه قبل الحرب . وصادف ان وقع صاحب المعمل في ضائقة عتيب وقوف الحركة المالية في فرنسا وكان مديناً لرجل عجوز بمبلغ من المال فاراده ان ينظره الى ميسرة فالح هذا في تقاضي دينه فلم يسعه الا ان يدفع اليه ما اراد وعندها دمر ذاك الجاسوس الى دار الشيخ وذبحه واخذ اوراقه المالية التي كانت فيها اشارة الى انها صادرة عن صاحب المعمل ودفع القسم الاعظم منها الى عشيقة صاحب المعمل القديمة لتؤديها اليه وفاء عن مبلغ كانت اقترضته منه ايام اتصالها به فاخذها هذا فرحاً وصادف ان كانت دار صاحب المعمل في ضاحية باريز مناوحة لدار الشيخ القتيل الذي كان دائن الاول مديناً له وان صاحب المعمل تأخر ليلة القتل مضطرباً من الازمة المالية التي تهدده بالخراب وان زوجته وابنته رأتا شخصاً شبيه لهما به فظنتا انه هو الذي دخل دار ذاك الجار العجوز قبيل منتصف الليل واتفق وجود شبه في الصورة بين صاحب المعمل وبين الجاسوس القاتل ووقعت للابنة وامها امارات قوية تدل على ان صاحب المعمل هو القاتل لا محالة ولما استنطقتهما النيابة من الغد ظهر عليهما تردد لم يشك القضاة معه بان القاتل هو صاحب المعمل فقتل غريمه بعد ان دفع اليه المبلغ كما علم من كتابين كان بعث بهما اليه قبل يومين من مقتله يهدده فيهما ضمناً ان لم يمهله في الدفع

ولما سجن صاحب المعمل بما قامت عليه من الامارات وهو ينادي بانه بريء تقدم صديقه في دار الحرب ذاك المحامي على عجزه ليتولى الدفاع عنه وفاء بحقوق الصداقة فابى ان يطلعه على سر قضيته ليحسن انقاذه من ايدي القضاء لكن صديقه المحامي عرف بان في المسألة سرًا له اتصال بامور نسائية ابت مروءة صاحبه ان يبوح به اليه لانه ربما ادّى الى خراب بيت وتشتيت شمل أسرة عظيمة وبينما هو في المحكمة يدافع عنه يوم صدور الحكم عليه وقد ايقن الناس بانه كاد يؤثر بطلاقة لسانه في عقول القضاة فيبرؤن صاحبه او يحكمون عليه بعقوبة خفيفة جدًا ألقيت اليه بطاقة فلما قرأها دهش وتلعثم ثم نقلوه الى غرفة وجاء الطبيب وقد فارق المحامي الحياة وعندها حكمت المحكمة على الذي تبين لها انه القاتل بالاشغال الشاقة مؤبدًا . وفي خلال ذلك هلكت امرأة صاحب المعمل حزنًا وخلفت ابنتها وهي في السابعة يتيمة عجيبة فكفلها خال ابيها وباع المعمل والمصيف وجميع ما يملكه ابن اخته ووفى ما كان عليه من الديون . اما صاحب المعمل فتمكن بعد سنة من الفرار من محبسه في خمسة من المجرمين السياسيين وانقلب الى نيويورك فقيرًا وقيرًا فدخل في احد المعامل وكان يحسن صناعة الحديد قوي العضل عارفًا بالميكانيكيات فظهرت كفاءته ووفق الى ان جمع مبلغًا من المال عاد به بعد سنتين الى فرنسا متخفيًا واخذ ابنته من خاله ورجع الى اميركا فزوده خاله بمبلغ من المال يستعين به على تربية ابنته وكان خاله عقيمًا فانشأ ذاك المحكوم عليه يتوسع في عمله وذهب الى كندا فاغتنى كثيرًا بفضل كده وعمله وسعة معارفه في الميكانيكيات والطبيعيات وعلم ابنته التعليم العالي وبدل اسمه واسم أسرته وبعد ان قضى هناك نحو عشر سنين حدثته نفسه بالرجوع الى وطنه ليكشف سر قضيته ويعاد النظر فيها ليعرف من اين أتى فرجع واتخذ له دارًا في ظاهر باريز . ومن غريب المصادفات ان القصر الذي اكتراه كان بالقرب من مزرعة انتقلت بالارث الشرعي لزوجة صديقه الذي هلك في خلال الدفاع عنه او عشيقته القديمة وكانت اوت اليها بعد وفاة زوجها مع ولديها فاتصل اهل البيتين بواسطة ابنة صاحب المعمل وعقدت بينهما صلات التعارف وما زال الغني المحكوم عليه يبحث حتى توصل الى معرفة القاتل الحقيقي ودخل معه في شركة ثم بعث الى البورصة من قبله بمن سعى الى اسقاط اسمها فافلس شريكه او كاد ولم يجد ملجأ الا شريكه صاحب المعمل فوعده باعطائه شيئًا من المال الا ان القاتل القديم اضمر ان يقتله وراح من الليل الى داره وكان نصب له تمثالاً من الخشب وضعه على المنضدة فشبه له وظنه هو فانشأ يضربه بخنجره وكان صاحبنا كامنًا له مع اثنين من رجال الشرطة وقاضيين كان لهم يد في الحكم عليه سابقًا فامسكوه واعترف بفعلته وهو متلبس بالجريمة الا انه طعن نفسه في الحال بخنجره وسألوه اسئلة

فاعترف بانه هو قاتل ذاك الشيخ العجوز الذي كان صاحب المعمل مديناً له وان له شريكاً في قتله وحشرجت روحه فلم يسم ذاك الشريك وعندها صدر عفو الحكومة عن صاحب المعمل وعقد لابنته على احد ولدي صديقه المحامي وكان محامياً ايضاً وماتت في خلال ذلك امها اي عشيقة صاحب المعمل وقد اقرت بما جنته وسقطت من عيني ابنيها وراح الزوجان الجديدان تحالفهما السعادة بعد ان شقي ابواهما واماهما هذا الشقاء الذي قاد اليه الغرور وطيش الصبا والصبوة . وقد وقعت القصة في ثمانمائة صفحة صغيرة صدرت في اربعة اجزاء وهي تطلب من مكتبة المسامرات وثمنها ثمانية قروش وفيها كثير من الحوادث التي تلذ العامة وبعض الخاصة .

سير العلم

حروب العالم

الف احد علماء الفرنسيس كتاباً جليلاً سماه ماضي الحرب ومستقبل السلم ذكر فيه ما احدثته الحروب من الويلات في القرن التاسع عشر قرن العلم والنور فقال ان القوانين حكمت في خلاله على عشرة آلاف مجرم بالاعدام في العالم على حين ان الحروب ازهقت ارواح خمسة عشر مليون شاب شجاع وعلى هذا فقد كفر مجرم واحد عن فعلته بالموت وقضى الفان من الابرياء في ميادين الوغى فكان الماضي حقاً مجزرة عقيمة واذا ظلت هذه المجازر تجري على مرأى ومسمع من العالم فان عارها تجمر منه الخدود وذكراها تقشعر منه الجلود . قال ومن ادعى بان فرنسا اذا سعت الى ابطال الحرب ولم تعد الى ما انته من حوادث الجنون في اهراق الدماء على عهد فرنسيس الاول ولويس الرابع عشر ونابوليون الاول تسعى الى حتفها بظلفها فهو في غرور واذا فعلت فرنسا فانها بذلك تعمل على ما فيه مجدها واعلاء شأنها . قال واما اولئك الالوف من الضباط ومئات الالوف من العملة في دور الصناعات الذين يعملون الآن فانهم ينصرفون الى اعمال غير اعمالهم الآن فبدلاً من انشاء الدوارع الحربية ينشئون البواخر التجارية وبدلاً من صنع الخرطوش يعملون على استنبات الحنطة وقال ينبغي ان تكون معاهدات التحكيم اجبارية بين الامم وبذلك تمتنع الحروب من العالم .

الدخان الضار

يحدث من دخان المعامل في المدن الصناعية الكبرى كلندن وباريز ما يضر بالسكان

والمكان فقد قدر الحامض الكبريتي الذي يتكون منها كل سنة في لندن وحدها بنصف مليون طن تدخل في رئة الناس لتقرضها كما تقرض الحجر الجيري والرخم «الدبش» والتوريد وتحيل هذه المواد الى سلفات الجير وتتفتت ويخشى منها على المصانع الكبيرة والمعاهد والمعابد . وقد جربوا عدة مواد لملافاة ضرر هذا الدخان ورأوا ان احسن واسطة طلي البنايات بمحلول الباريت لانه كالملاط يحكم الربط بين اجزاء الحجارة فاسفرت تجربته عن تقوية الحجارة كأنها الآن خارجة من المقلع وكانت من قبل تتفتت باليد . ولكن اذا اغتبطت الجمادات بانها لا تتضرر بعد الآن بهذا الدخان فان الانسان والنبات ما زالا يتضرران منها والعلماء يبحثون عن طريق تقي منها البشر

اقزام جدد

صادف احد رجال البعثة الانكليزية التي عهد اليها صعود جبال القمر في خلال سياحتها في افريقية جيلا من الافريقيين الاقزام لم يكن معروفاً من قبل في بقعة كاد يظن انها امنع من جبهة الاسد تمتد من جنوبي بحيرة البرت ادوارد وهي جبلية ذات وهاد ونجاد وعقاب وشعاب وفيها فوهات بركانية خامدة وهذه الجبال مغطاة باشجار الخيزران الجيد وقد نزل اولئك الاقزام في ادغال هناك وهم يعيشون بشن الغارات على من في جوارهم ونهب السكان المنتشرين في الجبال . وهم اقصر قامات من اقزام الكونغو ولم يعرف العلماء الباحثون في اصول الامم عنهم شيئاً . فهم لا يعرفون الصنائع ولا الصيد ولا يحسنون غير السلب والنهب وعندهم خلايا يقتاتون بعسلها مع اللبن وقد اتى المكتشف معه الى اوربا باقزمين مثالاً من اولئك القزم المجهولين .

اللغة العربية

قال الدكتور براون احد اساتذة جامعة كامبردج في مأدبة اقامتها اللجنة المصرية في دار الندوة الانكليزية لجماعة المصريين : ان لغة مصر الآن تهبط وهي اللغة العربية الفصحى لان الازهر قد بقي في خلال هاتيك القرون المظلمة حصناً منيعاً للغة العربية والآداب الاسلامية . وقال : يقولون ان اللغة العربية غير صالحة للعلوم العصرية . يقولون هذا وهم لا يعرفون من اللغة العربية حرفاً واحداً . اللغة التي حفظت لنا فلسفة اليونان والرومان من الضياع . اللغة التي نقلت لنا آداب الفرس والهنود والقرون البائدة . اللغة التي كتبت بها جميع المؤلفات العلمية الثمينة كيف يمكن ان يقال انها لا تتسع صدرها لتلقين مبادىء علوم عصرية ؟

ألفت الكتب في علم الجغرافيا وتخطيط البلدان على طريقة لم يؤلف مثلها وكتبهم العربية في التاريخ ارسع المكتب وادقها بل في نظري ان التاريخ في بعض المؤلفات العربية لم يكتب على نسقه في اوربا وذكر ابن خلدون وابن الاثير والطبري والفخري وغيرهم ثم قال : وفي باب العلم والفلسفة والاخلاق نجد من المؤلفات ما لا يوجد له مثيل . ما ظنكم بجماعة من كبار اهل العلم يجتمعون في القرون التي كنا فيها في دور الهمجية والوحشية يؤلفون دائرة علوم اسمها « اخوان الصفاء » ونحن من الآن نفتخر بكتاب دائرة العلوم الانكليزية في القرن العشرين ونقول ان اللغة العربية لا تصلح لتلقين العلوم . هذا الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » قد جمع في مؤلف صغير خلاصة الآراء الدينية والفلسفية التي كانت تعتقد فيها الامم الغابرة والحاضرة وهذه دوائر العلوم العربية في مكاتب اسبانيا وفي مكاتب اوربا وكيفما كانت الحجة في عدم تعليم العلوم باللغة العربية في مصر فلا مراء مطلقاً في ان تعليم امة العلم بغير لغتها صدٌّ لها عن التقدم وعقبة كبرى في سبيل نهضتها بل اقول انه لا تعليم البتة لامة بغير لغتها .

ورق الخيزور

ذكرنا ما كان من اتخاذ بعضهم الورق من شجيرات الاريقي وما كان من اتخاذه من سوق القطن وعيدانه . وقد قرأنا في الاخبار العلمية الآن انهم اخذوا يصنعون الورق من الخيزور في برمانيا من اعمال الهند الصينية فمنحت حكومتها عدة امتيازات للانتفاع بالخيزران وقد كان الصينيون منذ الزمن الاطول يعرفون الياف الخيزور وانه يصنع به ورق وان لم يستعمل في الصناعة بالفعل ولكن احد الانكليز المقيمين في جزائر الجاما يبك عنّ له هذا الخاطر فاخذ منذ عام ١٩٠٠ يضاعف الهمة في زرع الخيزران في ذاك الارخبيل ولكن اعماله لم تأت بفائدة لنزع الياف من الصمغ الذي يلصقها بالجذوع وقد توصلوا الآن الى صنع ورق جميل جداً من الياف الخيزور وهو من الطراز الاول في الجودة والمتانة واخذت الحكومة الانكليزية في ذاك الصقع تنشط زراعة الخيزران لرخص اسعاره وجودة ورقه وسيعمل من الياف بعد سبع سنين كل سنة عشرة آلاف طن وبعد خمس عشرة سنة عشرون الف طن فيأتي بارباح عظيمة .

البيض

قدم احد العارفين الى كلية باريز بحثاً في منافع بيض الدجاج وبيض النعيم «البطارخ» قابل فيه بين تغذية هذا البيض وتغذية اللحوم فقال ان البيض ولا سيما بيض النعيم تكثر

فيه مادة الالبومين اكثر من اللحم وانه من حسن الرأي الاعتماد على هذا البيض في التغذية على شرط ان لا يتعدى معدله من الجنسين من خمسين الى مائة غرام في اليوم وقال انه من حيث الثمن ارخص من اللحم وسالم من العيوب وفيه غذاء نافع فوسفوري

المطاط

كتب احدهم في مجلة المجلات الاميركية مقالاً تكلم فيه عن المطاط وذكر شيئاً من تاريخ معرفة الناس فوائده واكتشافهم الجهات التي تنمو فيها اشجاره واستخراجهم له قال: في المنطقة الحارة التي هي المنبت الحقيقي لاشجار المطاط نحو الثلاثمائة او الاربعمائة شجيرة وغرسة يخرج منها سائل يضرب لونه الى البياض فيد خواص المطاط واهم مورد له الآن وادي الامازون وانكونغو ومن المحتمل الحصول عليه ايضاً في المستقبل من جزيرة سيلان ومستعمرة سنغافورة بكميات وافرة . وفي هذا الوقت تزرع ملايين من اشجاره بالهند مع انواع منها جديدة يرجى ان يكون مطاطها رائجاً جداً في جميع الانحاء .

المطاط مادة تستخرج من لحاء الاشجار ولتلك المادة لون يشبه لون اللبن وهي في عرف علماء الكيمياء من قسم الجوامد التي تعرف بالمواد الغروية Colloids غير انهم يجهلون كل الجهل المنشأ الحقيقي لخاصتها الغروية . وقد وفق شارلش ماكنتوش عام ١٨٢٣ الى تذويب المطاط في البنزين وفي سنة ١٨٣٩ اكتشف شارلس جدبير من نيويورك انه اذا مزجت كمية من المطاط مع اخرى تعادلها من الكبريت لم يكن الناتج ليتحلل اذا سلطت عليه حرارة خفيفة اوليزخ اذا كانت درجة الحرارة عالية . لم يكن المطاط في ذاك الوقت مستعملاً بكثرة في الولايات المتحدة اما اليوم فانها تستعمل زهاء نصف ما يستخرج من المطاط في الكرة الارضية ويصح ان نقول ان المطاط يكون غداً من الزم ضروريات الحياة واصبح عظيم الخطر والقدر وقد جاء وافياً بما كنا ننشده من متممات معينات التنقل . فلولاه لكان من المستحيل عمل مركبات السكك الحديد الهوائية (مركبات تسير على قضبان من حديد بواسطة الهواء المضغوط) ولولاه لما تمكنا من نقل الكهرباء وتسييرها في الاسلاك .

من الممكن للناس ان يستغنوا عن المطاط في صنع الاحذية والجوارب مثلاً ولكنهم لا يمكنهم ان يتخلوا عن استعماله — اذ لا يوجد ما يغني عنه — في عمل وسائل التنقل الجديدة كعربات السكك الحديدية والسيارات وفي المفاوضات بالكهرباء والانارة بها وكذلك يحتاج اليه في عمل الجراحات وفي الادوية ويبلغ مجموع ثمن ما يباع منه في انحاء العالم ١٦ مليون درهم انكليزي وزنة هذا المحصول ١٢٥ مليون رطل انكليزي والمدن التي فيها اكبر اسواق المطاط والتي يصدر منها الى سائر الامم هي : نيويورك وليفربول ولندرة

والتوزب وكمبرج ولشبونة والهافر ولا يزيد مايؤخذ سنوياً من المطاط من الاشجار التي زرعت حديثاً عن مائة طن . والاشتغال بجمع المطاط في جهات الامازون والكونغو صعب جداً ولا يقدر على المعيشة والعمل هناك غير الوطنيين . وجميع الاحذية والنعال والملابس المصنوعة منه بالولايات المتحدة — ما عدا مدينة بوستن — تحتكرها شركة واحدة تدعى « شركة مطاط الولايات المتحدة » . ويفيدك ان تعلم انه يمكن اصلاح ما يخرب مما يصنع من المطاط اذا تقادم عليه العهد وارجاعه الى سابق حاله .

السكك الحديدية

تكثر الاعشاب والجميم في ممر الخطوط الحديدية حتى تكاد تكون احياناً من عوائق القطارات وقد استعملت عدة ذرائع لاهلاكها فلم تأت بنتيجة وقد اخترعت الآن شركة سكك حديد المحيط الهادي في اميركا مركبة كهربائية ذات دواليب تحرق الاعشاب على طول الخط الحديدي فتزيل في النهار الواحد الحشيش والعشب من ثلاثين الى اربعين كيلومتراً وهذه المركبة تسير كما يسير القطار العادي واذا اجتازت مرتين او ثلاثاً في مكان فبشره بعدها بانه لا ينبت فيه عرق اخضر .

اللبن النباتي

يستعمل هذا اللبن في الصين ويستعاض به في بعض الاحوال عن لبن البقر وهو يصنع من بزور الفاصوليا الزيتية Soja Hispida فتطبخ وتعصر جيداً بحيث يأتي منها نوع من العصيدة اذا حلت في الماء يكون منها مشروب يسمى اللبن النباتي ويصنع من جبن طري ويمكن حفظه بوضعه في الملح فيشبه جبن « الروكفور » وجبن العنز المعروف بالشيبيشو وجبن « الجرافيرا » .

اللغات الاوربية

يقول احد علماء السكسونيين انه سيكون عدد المتكلمين باللغة الانكليزية في اواخر القرن العشرين ٦٥٠ مليوناً من البشر وعدد المتكلمين بالروسية ٢٣٥ مليوناً وعدد المتكلمين بالالمانية ٢١٥ وعدد المتكلمين بالافرنسية ٩٠ مليوناً وعدد المتكلمين بالايطالية ٧٩ مليوناً وبالاسبانية ٧٥ وقد اوقع بعض الفرنسيس الشك في هذا التخمين .

قاموس المجمع العلمي

ذكروا ان عدد المفردات التي شرحها قاموس المجمع العلمي الفرنسوي اثنان وثلاثون الفاً فيها عشرون الفاً من اصل علمي او غريب . وقد قدروا عدد المفردات البسيطة

المستعملة بالافرنسية في الحاجيات اليومية باربعة آلاف كلمة . ويقول اللغوي ماكس مولر في كتابه علم اللغات ان غاية ما يستعمله المتعلم من الانكليز في شؤونه هو اربعة آلاف كلمة ايضاً . ونحن لا نظن ان المألوف من الالفاظ في معظم اللغات يتجاوز هذا القدر او اكثر منه بقليل مهما كانت اللغة متسعة .

أثر لارخميدس

عثر المؤرخ هبرج الدانيمركي مؤخراً على نسخة خطية كتبت على ورق صادر من مدينة القدس وهي عبارة عن رسالة في الحساب غير معروفة من ارخميدس اعظم مهندس يوناني وهذه الرسالة تكاد تصور حساب التكامل الذي عرف في العصور المتأخرة وبهذا الاكتشاف يكون ارخميدس اعظم رياضي قام في العالم .

التربية المتحدة

انشأ احدهم مجلة بالانكليزية في انكلترا سماها مجلة «كليتي اكسفورد وكمبردج» وهما اشهر مدارس انكلترا يتوخى فيها الجمع بين المدرستين ليتحدا في التعليم وقد كتب احدهم فيها مقالة بين طريقة الولايات المتحدة في توحيد التربية فقال انه لم يكن في اميركا سنة ١٨٧٠ — ٧ر٠ في المئة من المدارس المختلطة من الصبيان والبنات وما بقي منها كان يختلف اليه الصبيان فقط . وفي سنة ١٨٩٨ اصبحت المدارس المشتركة ٧٠ في المائة من مجموع مدارسها وربما أنشئت هناك كلية عظمى خاصة بالبنات فقط .

تنزيه المستخدمين

يتنافس كثير من المحال التجارية الكبرى في فرنسا في ارسال مستخدميهم لا سيما مستخدماتهم الى الضواحي والجبال خلال اشهر الصيف ليروّحن نفوسهن باجور طفيفة جداً وقد أنشئت في باريز جمعيات لارسال الاولاد الى الجبال مدة القيظ وبمثل هذه الاعمال الافرادية تُحل المشاكل الاجتماعية احسن حل .

مدارس النساء

قالت المجلة يجدر بنا بمناسبة مرور السنة الخامسة والعشرين على تأسيس مدارس البنات العالية ان نقول ان في فرنسا ٥٦ مدرسة وسطى و٤٧ مدرسة عالية للبنات .

العاملات في فرنسا

في فرنسا ستة ملايين امرأة مستخدمة في الصناعة ومليون امرأة تخدم في البيوت والخوانيت

ومائة وخمسون الفاً انصرفن الى الاعمال الحرة ومئة الف في خدمة الحكومة في العاصمة والولايات .

المهاجرون الى اميركا

يؤخذ من التقرير السنوي الذي نشره مكتب المهاجرين الى اميركا انه كان عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة سنة ١٩٠٦ زهاء مليون نسمة ولم يهاجر اليها في سنة واحدة اكثر من هذا العدد حتى الآن ومعظم المهاجرين هم من الطليان فقد بلغوا ٢٨٧ الفاً ويليهم البولونيون والالمان واليابانيون والفرنسيس .

المتعلمون في العالم

احصي احد اساتذة كلية كولومبيا الجامعة عدد الاولاد الذين يتعلمون في المدارس فكان عددهم ٢٣ في المئة من مجموع الامة في الولايات المتحدة و١٩ في المئة في المانيا و١٥ في انكلترا وفرنسا وثلاثة ونصفاً في المئة في روسيا وفي روسيا سبعة ملايين ولد ليس لهم مدرسة يتعلمون فيها

سياح الاميركان

تشاءمت صحف اميركا من كثرة اقبال الاميركان على السياحة سيما اوربا فقد زاد عددهم في هذه السنة زيادة عظيمة فقدر الراحلون منهم بمئة الف سائح فاذا كان معدل ما ينفقه الواحد منهم خمسة آلاف فرنك فيكون ما تخسره اميركا من ذلك خمسمائة مليون فرنك

الاحتكار في اميركا

بدأت الولايات المتحدة تدرك مضار الاحتكار فقد قدر بان معامل السكر التي أغلقت بمنافسة كبار المحتكرين لها سنة ١٩٠٥ في تلك البلاد بلغت ثلثمائة معمل ومثل هذا العدد من المدابغ ومعامل الاحذية كما أغلق مائتا معمل للقطن وقد زادت اثمان هذه المصنوعات ثلث ما كانت عليه كما زاد المصنوع منها ثلاثين في المئة .

ثروة اميركا

كتب احدهم في مجلة العالمين الباريزية فصلاً في ثروة الولايات المتحدة قال فيه ان نجاحها في زراعتها هو بيت قصيد فلاحها فان صادراتها الزراعية بلغت اربعة مليارات فرنك وهي تزيد عن وارداتها الزراعة ملياراً وخمسمائة مليون . فالثروة الزراعية تساوي نصف ثروة الامة باسرها والزارع الاميركي يمثل ٣٥ في المئة من مجموع الشعب العامل واكثر

رؤوس الاموال تصرف في الزراعة وما ينبغها وتصريف المياه والنقل والمهاجرة وتسهيل المواصلات واسباب النقل . وما نظارة الزراعة في تلك البلاد العظيمة الا مستودع عظيم للبذور « النقاوي » على اختلاف انواعها توزعها على المدارس العامة او يوزعها نواب البلاد بايديهم على الفلاحين يناولونهم اياها باليمين كما يناولونهم بالشمال كراسة تطبع منها تلك النظارة ملايين من النسخ فيها كل ما ينفع الزارع في زراعته .

طعام الفرد

قالت مجلة العلم في القرن العشرين ان الاعتماد على البقول في الغذاء نافع على شرط ان يطبق على حاجة كل فرد ولا يكفي ان يحرم المرء نفسه من اللحم ويحشو معدته بالبقول الخضراء والمواد النشوية ولا ان يمتنع من تناولها بل ينبغي ان ينظر في ذلك الى القوى الهاضمة التي تختلف في كل انسان بحسب الشهوة والسن وثقل الجسم وغير ذلك فالفرد الذي يبلغ وزنه من ٦٥ الى ٧٠ كيلوغراماً مثلاً يكتفي بالفين او بالفين وخمسمائة جزء من الكالوري اذا اجاد مضغ الاطعمة تماماً .

قانون الامية

اقترح على الولايات المتحدة وضع قانون من شأنه ان لا يرخص بالدخول للعامي الامي من المهاجرين اليها فلا يدخل الولايات المتحدة الا من تعلم التعليم الابتدائي راذ كان اهل ايطاليا اكثر الامم هجرة الى اميركا فسيقضى عليهم ان يتعلموا كلهم ما يخرجهم عن الأمية لان قانون التعليم الاجباري لم يسر في ايطاليا الا في سنة ١٨٨٢ ومع هذا فقد دل الاحصاء الاخير ان على ٦٠ في المئة من اهالي اقليم كالابريا وهي واقعة الى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايطاليا لا يعرفون ان يوقعوا على صك زواجهم وفي مقاطعة نابولي ٣٠ في المائة من المتزوجين ما برحوا أميين اما في رومية فان عدد الاميين ١٢ في المئة ونصف من هاجروا في السنة الماضية من ايطاليا الى اميركا أميون .

دائرة المعارف الالمانية

صدر الجزء الثامن من هذه الموسوعات التي دعوها « العلوم العصرية وانتشارها وغاياتها » التي ينشرها الاستاذ بولس هينبرغ تحت حماية امبراطور الالمان ويساعده في وضعها مئات من اهل الاختصاص في العلوم والفنون المتنوعة ومن المقالات التي فيها ما يعد بين كبار اهل العلم من الآثار النادرة والكتابات الباهرة . وهي كسائر دوائر المعارف على حروف المعجم ولكنها تقسم الى اربعة اقسام فالقسمين الاولين يتناولان البحث في العلوم العقلية كالدين والفلسفة والادب

والفنون الجميلة والحكومة والمجتمع والحقوق والاقتصاد السياسي والقسم الثالث مخصص للعلوم الطبيعية والقسم الرابع يبحث في العلوم الاصطلاحية وهو من اهم الاسفار التي أُلفت في هذا القرن لانه خلاصة علوم البشر وزبدة ابحاث الالمان المعروفين بصبرهم وانكماشهم في خدمة المعارف.

الجرذان

الجرذان من اشد المصائب على العالم ولم تُعرف الى الآن واسطة لابادتها. نادت بذلك نظارة الزراعة في الولايات المتحدة وحق لها ان تنادي لان الجرذان قد قامت منذ قرون باضرار لا تحصى في اميركا وهي آمنة مطمئنة وراحت تنتقل الى العالم الجديد من العالم القديم وتتناسل وتتكاثر وكانت الاسباب المتخذة لابادتها عقيمة بلا جدوى. والجرذان ثلاثة انواع الاسود وهو المنتشر في اميركا منذ ثلاثة قرون والاسمر واصله من نروج وصل الى هناك منذ سنة ١٧٧٥ واثار حرباً عواناً على الاسود والنوع الثالث جرذ انتقل الى اميركا من مصر على البواخر التجارية وانتشر على الشواطيء ولا سيما في الجنوب وباض فيها وفرخ والجرذ الاسمر اشد هذه الانواع فتكاً واكثرها تخريباً ويقدرون ما تقضمه الجرذان في الولايات المتحدة كل سنة من الحبوب بما لا يقل عن نصف مليار فرنك وهولا يكتفي بتناول الحبوب فقط بل يقرض الاقمشة والحرائر والامتعة ولا يتحامى قضم الاسلاك الكهربائية وكثيراً ما كان يحدث عن فعله حرائق. وقد قدرت الخسائر التي تنجم عن الحريق في السنة بخمسة وسبعين مليوناً من الفرنكات باميركا والجرذان هو السبب الاعظم في اكثرها. خل عنك سطو الجرذان على غيره من الحيوان الداجن والحمام والاطفال في سررهم. هذا وهو واسطة لنقل الجراثيم المعدية من بيت الى آخر ومن مدينة الى أُخرى. والسبب في كثرته انه تناسل تناسلاً غريباً فتلد الفأرة في كل شهرين او ثلاثة من عشر الى اربع عشرة فأرة فلا تكاد ترى النور حتى تبدأ بقرض كل ما تراه وتشمه وقد حسبوا ان جرذاً واحداً في ثلاث سنين يلد منه ويولد له زهاء عشرين مليون جرذ يموت اكثرها ولكن ما يبقى منها كاف لان يقرض الطري واليابس. والحكومة الاميركية ساعية لابادة الجرذان ووضع نشرة بمضاره وخبث آثاره وستشاركها الدول كلها في اعلان الحرب على تلك القراضة.

الزجاج المغزول

اخترعوا زجاجاً ناعماً كالشعر له لونه وبعض نعومته ليستعاض به عن الشعر المستعار لان انكلترا منعت القرويات من بيع شعورهن من صناع الشعور المستعارة ليبيعوها من النساء الغنيات الصلعاء والزجاج المغزول يستعمل ايضاً للرجال الذين اصيبوا بفقد شعورهم